حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

مجلة دولية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية والعصر الوسيط

Journal of Medieval and Islamic History

An International Review Interested in Byzantine, Medieval and Islamic History

(JMIH)

ISSN 2090-2883

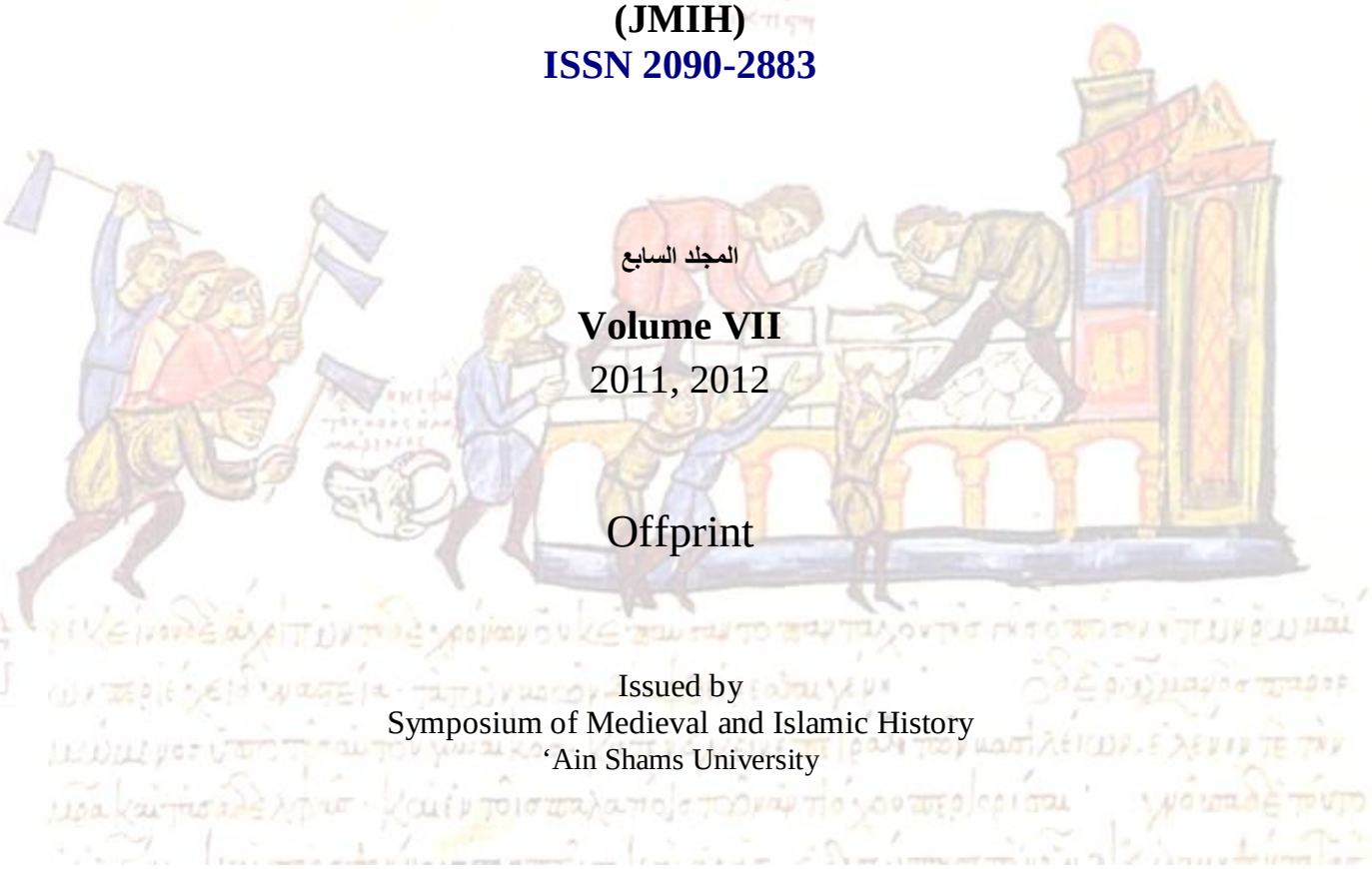

المجلد السابع

Volume VII

2011, 2012

Offprint

Issued by
Symposium of Medieval and Islamic History
'Ain Shams University

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

مجلة دولية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية والعصر الوسيط
يصدرها: سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس

المشرف العـــام: ا. د. اسحـــــق عـــبيـــد

رئيس التحريـــر: ا. د. طـــارق منصـــور

مستشارا المجلة: ا. د. محمـــود إسماعيـــل

ا.د. فتحـــي أبـــو سيـــف

مساعدا التحرير: ا. د. محاسن الوقاد، د. عبد العزيز رمضان

سكرتارية المجلة: د. محمد نصر عبد الرحمن

د. سند أحمد سند

اللجنة العلمية الداخلية:ا.د. زبيدة محمد عطا

ا.د. قاسم عبده قاسم

ا.د. محمود سعيد عمران

ا.د. وسام عبد العزيز فرج

اللجنة العلمية الدولية: ا.د. بيتر فرانكوبان، اوكسفورد، بريطانيا.

ا.د. تاكسيارخس كولياس، أثينا، جمهورية اليونان.

ا.د. جوناثان شيبرد، اوكسفورد، بريطانيا.

ا.د. جوان مونفرر سالا، اسبانيا.

ا.د. سهيل زكار، دمشق، الجمهورية العربية السورية.

ا.د. فاسيليوس خرستيدس، أثينا، جمهورية اليونان.

ا.د. مايكل كوك، برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية.

النشر والتوزيع: دار الفكر العربي، ٩٤ شارع عباس العقاد، مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية. ت : ٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٨٤ – ٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٧٩٤ فاكس : ٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٧٣٥ الموقع الاليكتروني: http://darelfikrelarabi.com

- ترسل المراسلات والبحوث باسم رئيس تحرير المجلة على العنوان التالي: كليـــة الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، جمهورية مصر العربية. الرمز البريـــدي ١١٥٦٦، فـــاكس: ٠٠٢٠٢-٢٦٨٥١٤٣٢ بريد اليكتروني tm_jmih@hotmail.com ، شريطة ألا تكون قـــد سبق نشرها في مكان آخر، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلي IBM ، Word XP or 2003، Windows XP حسب المواصفات التالية:

١ - البحوث المكتوبة باللغة العربية:

- العنوان الرئيس فونت ١٦ Heading Bold، العنوان الفرعي فونت ١٣ أسود.
- الخط Simplified Arabic ، فونت ١٢.
- الهوامش سفلية، فونت ١٠، ترقيم متتالي من قائمة إدراج.
- المسافة بين السطور مفرد للنص وكذلك للهوامش.
- مواصفات النص ١٢.٥ X ٢٠.٥سم، بدون الترقيم.

٢ - البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

- العنوان الرئيس فونت ١٢ أسود ، العنوان الفرعي فونت ١٢ أسود، الهوامش فونت ١٠.
- الخط Times New Roman ، فونت ١٢.
- المسافة بين السطور single للنص ، exact للهوامش.
- مواصفات النص 12.5 X 20.5 سم بدون الترقيم.
- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن مقاس٣.٥ أو على CD.
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر يونيو من كل عام.
- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسي للبحث مباشرة.

شروط النشر:

١. تُقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.
٢. يقدم الباحث نسختين مطبوعتين من بحثه بالإضافة إلى نسخة على الـــ CD.
٣. ينبغي ألا يكون البحث المقدم للنشر قد سبق نشره في دورية من الدوريات المعتمدة.
٤. يرفق الباحث مع بحثه ملخصاً باللغة العربية وآخر باللغة الإنجليزية.

٥. ينبغي ألا يكون البحث المقدم للنشر جزءً من رسالتي الماجستير أو الدكتوراه الخاصة بمؤلف البحث.

٦. أن يتسم العمل المقدم بالأصالة والجدية، وأن يكون موثقاً توثيقاً علمياً، معتمداً على المصادر الأصلية والمراجع المعتمدة.

٧. تحكيم البحوث يكون سرياً، ويقوم به اثنان من المحكمين الدوليين بمعرفة المجلة.

٨. يخطر الباحث بنتيجة التحكيم سواءً بالرفض أم القبول. ويمكن للباحث معرفة أسباب عدم النشر دون الإشارة إلى هوية أو أسماء المحكمين.

٩. بعد أن ينشر الباحث بحثه أو دراسته بالمجلة لا يحق له إعادة نشره في أي مكان آخر إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وبعد حصوله على إذن خطي من إدارة المجلة؛ وإلا سوف يحرم من النشر بالمجلة لمدة خمس سنوات تالية.

١٠. يزود الباحث بخمس مستلات من بحثه وعدد من الإصدار.

١١. على الباحث الالتزام بقواعد الكتابة والتوثيق طبقا لنظام المجلة وكذلك مختصر الدوريات المنشور على موقعها الإليكتروني: http://jmih.zxq.net.

شكر وتقدير*

تتقدم هيئة تحرير حولية التاريخ الإسلامي والوسيط بخالص الشكر والتقدير إلى الأساتذة الأجلاء الذين تكرموا بتحكيم البحوث الواردة في هذا العدد، متمنين لهم دوام التوفيق، وهم:

أ.د. طارق منصور أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب بجامعتي عين شمس (مصر) والطائف (السعودية).

د. عبد العزيز رمضان أستاذ التاريخ الوسيط المشارك، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

أ.د. عبد الله الربيعي أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

أ.د. محاسن الوقاد أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.

أ.د. محمود إسماعيل أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.

أ.د. محمود سعيد عمران أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائياً.

المشاركون في العدد*

خالد حسين محمود	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر.
خلفات مفتاح	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية الآداب، جامعة المسيلة، الجزائر.
عائشة مرشود الحربي	مدرس (أستاذ مساعد) التاريخ الوسيط، جامعة طيبة، المدينة المنورة، السعودية.
لخضر بولطيف	أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة المسيلة، الجزائر.
المتولي السيد تميم	مدرس تاريخ العصور الوسطى (أستاذ مساعد) ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، فرع دمنهور، مصر.
محمد الغضبان	أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سوسة، تونس.
محمد عبد الحميد سعيد	أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – تونس
محي الدين لاغة	أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سوسة، تونس.
منذر الحايك	أستاذ التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة القلمون، سورية.
نجلاء حسني مبارك	مدرس التاريخ الإسلامي (أستاذ مساعد) ، مصر.
ياسر أحمد نور	أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، كلية التربية، جامعة المنصورة، مصر.

*هذه الأسماء مرتبة ترتيبا هجائياً، وكذلك البحوث.

المحتويـات

أولاً: البحوث العربـية

شكر وتقدير..... ز

المشاركون في العدد ..... ط

المحتويات..... ك

تقديم..... م

- **خالد حسين**: الجانب السياسي في حياة الفقيه أبي عمران الفاسي..... ٣

- **خلفات مفتاح**: دور علماء زواوة في تأطير الحيـاة الفكريـة فـي مـصر والأندلس..... ٦٣

- **عائشة بنت رشود الحربي**: الفاطميون وجهادهم المقدس ضد جودفري حامي القبر المقدس..... ٩٤

- **لخضر بولطيف**: الفقيه محمد بن سليمان اليفرني الكومي الندرومي صـورة من واقع المشهد الثقافي في مجتمع الغرب الإسلامي..... ١٢٦

- **المتولي السيد تميم**، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين الروس في عصر روسيا الكييفية..... ١٥٢

- **محمد الغضبان**، عودة للإمام المازري وبعض مـسائله المحيّـرة: نازلـة الدنانير المغشوشة نموذجاً..... ١٩٢

- **محمد عبد الحميد سعيد:** صورة السلطان في الكتابات الدعائية الرسـولية: السلطان الأفضل عباس بن علي نموذجاً..... ٢٣٦

- **محي الدين لاغه**، تداخل الشفوي والمكتوب في تاريخ المغرب الإسـلامي: الكاهنة أنموذجاً..... ٢٧٦

- **منذر الحايك**، الشاميون والفرنج: تصور الآخـر فـي عـصر الحـروب الصليبـية..... ٢٩٦

- **نجلاء حسني مبارك:** أثر ابن برجان في حركة المريدين بالأندلس..... ٣٢٤

- **ياسر نور**، علماء الفيوم ودورهم في الحياة العلمية من العصر العباسي الأول حتى نهاية العصر المملوكي..... ٣٦٨-٤٠٦

تقـــديم

يسعد هيئة تحرير "**حولية التاريخ الإسلامي والوسيط**"، في ثوبها الجديد، بعد أن حـــصلت علـــى رقـــم التـــصنيف الـــدولي ودشـــنت موقعهـــا الإليكترونـــي (http://jmih.zxq.net) أن تقدم للقارئ عامة والباحث خاصة العدد الـــسابع الـــذي يحوى بين جنباته، وكعادة المجلة، مجموعة طيبة ومتميزة من الدراســـات والبحـــوث التي تتسم بالعمق والجدية والأصالة التاريخية. ويتميز هذا العدد بأن الطابع المغربي-الأندلسي يطغى عليه، فسبعة بحوث من جملة بحوث العدد البالغة أحد عشر بحثا تدور حول قضايا عدة من تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي الوسيط. أما بقيـــة بحوث العدد فتتباين موضوعاتها ما بين موضوعات في الحروب الـــصليبية ومـــصر الإسلامية وروسيا الكييفية.

وهذا المجلد يحوي بين جنباته مجموعة متميزة من المـــؤرخين المـــصريين وغير المصريين الذين يشار إليهم بالبنان. ويفخر قسم التاريخ بآداب عين شمس وهيئة تحرير المجلة بأنها دوما تجمع كل المؤرخين العرب وغيـــر العـــرب أيـــضاً علـــى صفحاتها. غير أن هذا العدد يتميز بثوب عربي خالص، نسجت خيوطه من بنات أفكار مؤرخينا من المحيط إلى الخليج.

ولا يسع هيئة تحرير الحولية في نهاية هذه الكلمة إلا أن تتقدم بالشكر للأستاذ الدكتور طارق منصور، على دأبه وصدق عمله وتفانيه في جمع هذه المـــادة العلميـــة التي ضمها هذا العدد، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة، فله من إدارة السمنار وهيئة تحرير الحولية كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق.

وإنه مما يسعد أمانة السمنار وهيئة تحرير الحولية بالغ السعادة أن تتلقي كل الملاحظات والمقترحات التي تتناول الحولية بالنقد العلمي الهادف وصولاً بهـــا إلـــي مكانة علمية عالمية مرموقة ترتجيها وإليهـــا نـــسعى علـــى بريـــدها الاليكترونـــي: tm_jmih@hotmail.com.

هيئـــة التحريـــر

صورة السلطان في الكتابات الدعائية الرسولية:
السلطان الأفضل عباس بن علي نموذجا

***د. محمد عبد الحميد سعيد**
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – تونس
الجمهورية التونسية

حرص سلاطين الأسرة الرسوليّة التي حكمت اليمن ما بين سنتي ٦٢٦-٨٥٨ هـ/ ١٢٢٩-١٤٥٤م على تقديم صورة سلطانيّة تليق ب"السلطان المثالي"، تتجلى فيها شروط الشرعية ومظاهر الهيبة في أبهى تجلياتها.[1] ظهر هذا الحرص في الممارسة السياسيّة والعسكريّة وفي المراسم الملكيّة، كما ظهر في النصوص والوثائق الرسميّة المتنوّعة والتي من ضمنها النصوص الكتابيّة المنقوشة على النقود أو العمائر والتحف، وكذلك الأشعار والمؤلفات التي وضعها أدباء البلاط أو وضعها السلاطين أنفسهم مثلما هو شأن السلطان الأفضل عبّاس الذي كان من أكثرهم تأليفا وبالتالي مساهمة في تلميع صورته الخاصة وصورة أسرته.

فما هي ملامح وخصوصيات الصورة التي رسمها لنفسه صحبة الجهاز الدعائي البلاطي المكلف بهذا الأمر؟

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس. بريد اليكتروني: saidhamid1959@yahoo.fr

1- حول تاريخ الدولة الرسوليّة، أنظر: أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، عني بتصحيحه محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، دار الآداب، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج ١-٢؛ جمال الدين محمد بن علي الحاسب المصري اليمني، الكتاب الظاهري في تاريخ الدولة الرسوليّة باليمن، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م؛ عبد الرحمان بن الديبع، قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد الأكوع الحوالي، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص ٢٩٩-٤٠٤؛ محمّد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجيّة في عهدهما، (٦٢٨-٩٦٣هـ/١٢٣١-١٥١٧م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندريّة، ١٩٨٠؛ محمد عبد الحميد سعيد، الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد بني رسول، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، تونس، ١٩٩٨.

من هو السلطان الأفضل عبّاس؟

هو الأفضل ضرغام الدّين عبّاس بن المجاهد علي سادس سلاطين بني رسول، حكم ما بين سنتي ٧٦٤- ٧٧٨ هـ/ ١٣٦٣- ١٣٧٦م، [٢] على إثر سلطنة والده المجاهد علي التي كانت أيامها أعسر أيام الأسرة الرسوليّة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة، فقد تسلّم المجاهد سلطنة هادئة نسبيا، وذلك سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م، وكان له من العمر خمس عشرة سنة، وهذا ما جعله عرضة للصعوبات المتواصلة منذ جلوسه على العرش، وقد واجه في الجملة ثلاث عشرة محاولة انقلابيّة أو انفصاليّة دبّرت تسع منها من داخل البيت الرسولي،[٣] كما واجه باستمرار "فساد" القبائل وخاصة في منطقة تهامة الساحليّة حيث تعرّضت القرى والمدن والقوافل إلى هجمات القبائل المنتفضة ضدّ وطأة الجباية وعنف السلطنة.[٤] كما انفصل عنه

٢- انظر ترجمة السلطان الأفضل في: الأفضل عبّاس الرسولي، نزهة الظّرفاء و تحفة الخلفاء، تحقيق نبيلة عبد المؤمن داود، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، مقدّمة التّحقيق، ص ٥-١٢؛ الأفضل عباس، العطايا السنيّة والمواهب الهنيّة في المناقب اليمنيّة، تحقيق عبد الواحد عبد الله أحمد الخامري، إصدارات وزارة الثّقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، مقدّمة التّحقيق، ص ٢٩-٩٢؛ الخزرجي، العقود ، ج ٢، ص ١١١- ١٣٨؛ عبد الرحمان بن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، (طبعة تشمل كتاب بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد)، تحقيق يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء؛ دار العودة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ١٠٠- ١٠٢؛ ابن الدّيبع، قرّة العيون، ص ٣٦٨-٣٧٦؛ عبد العال، بنو رسول و بنو طاهر، ص ٢٠٨ - ٢١٦ .

Varisco, D. M. and Smith, G. R., **The Manuscript of al-Malik al-Afdal: al-'Abbâs b. 'Alî b. Dâwud b. Yûsuf b. 'Umar b. 'Alî Ibn Rasûl (d. 778/1377): A Medieval Arabic Anthology from the Yemen,** London: Gibb Memorial Trust, 1998.

٣- إلى جانب أمرائه وعمومته وأبناء عمومته، خرج على المجاهد عدد من أولاده وهم: أبو علي المؤيد داود، وهو أكبر أبنائه، وقد خرج سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م، واستولى على المهجم شمال تهامة، لكن والده تمكن منه في نفس السنة. أبو سليمان العادل حمزة، خرج عن طاعة والده سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م مع أخيه الملك الصالح. المظفر يحيى، أقطعه والده فشال، ووادي رمع في تهامة ولكنه خرج عن طاعته سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، وظل خارجا عن الطاعة في عهد أخيه الأفضل حتى كانت وفاته بعد سنة ٧٧٠هـ /١٣٦٨م.

٤- أنظر الخزرجي، العقود، ج ٢، ص ٦٥، ٩٢. محمد عبد الحميد سعيد، "قبائل تهامة اليمن وعلاقاتها بالدولة الرسوليّة، (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م)، أشغال الملتقى الدولي الأول حول "القبيلة في العالم العربي الإسلامي، الوضع الحالي للدراسات والآفاق الجديدة"، تونس، مارس ٢٠٠٢، تحرير: راضي دغفوس، المجلّة التونسيّة للعلوم الاجتماعيّة، تونس، ٢٠٠٤، ص ١٣٧-١٧٠.

اليمن الأعلى واستقلّ به أئمّة الزيديّة نهائيا ليدخلوا مرحلة تهديد اليمن الأسفل. [٥] وبالإضافة إلى كلّ هذه الضربات المتتابعة عرف السلطان المجاهد الهزيمة والأسر في مكّة في موسم الحجّ سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م على يد القوات المصريّة التي حملته إلى القاهرة مكبّلا بالأغلال بتهمة السعي إلى السيطرة على المدينة المقدّسة، وأدخلته مقيّدا إلى بلاط السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون فقبّل الأرض مرارا بين يديه، ثمّ أُخلي سبيله بعد حوالي سنة مقابل أموال قرّرها على نفسه . [٦]

حدثت هذه المحن في أيام المجاهد علي طبعا، ولكنّ الأفضل عبّاس هو الذي سيتحمّل عبئ التركة التي أنهكت السلطان والسلطنة. وقد عبّر الخزرجي عن بعض ملامح هذه التركة في إطار وصفه للأوضاع في أواخر أيام المجاهد علي فقال: "وكانت الأطراف مضطربة وقد انفتح في كل ناحية منها باب فساد. فلما مات المجاهد رحمه الله قويت شوكة الفساد...". [٧]

كان على السلطان الأفضل إذاً أن يرمّم البيت المتداعي من الداخل بسبب الثورات البلاطيّة ويعزّز قدرات السلطنة المهدّدة في "مواردها الماليّة" بسبب "الفساد" المتفشي في "أمهات الأموال"، [٨] والمطعونة في هيبتها نتيجة "تطاول" "الخوارج والمتمردين، والطغاة والملحدين"،[٩] والمُهانة بحجم إهانة الأسر وثقل الأغلال التي حملها السلطان المجاهد في البلاط

٥- أهم حدث في هذا المجال هو استيلاؤهم على صنعاء سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م. انظر، يحي بن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج ١، ص ٤٩٩-٥٠٠. والزيديّة ينتسبون إلى الإمام زيد بن علي (ر) وقد أقاموا إمامة في اليمن تنافست مع الدول السنيّة منذ سنة ٢٨٤ هـ /٨٩٩ م. القاضي إسماعيل الأكوع، الزيديّة نشأتها ومعتقداتها، دار الفكر المعاصر، دمشق، بيروت، ١٩٩٧.

٦- انظر ترجمته في: الخزرجي، العقود، ج ٢، ص ١٣-١٠٧؛ تقي الدين الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيّد، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج ٦، ص ١٥٨-١٧٤؛ ابن الديبع، قرّة العيون، ص ٣٤٩-٣٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ج ١٠، ص ١٧٨-١٨١، ٢٠٧؛ عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص ١٨٥-٢٠٨.

٧- الخزرجي، العقود، ج ٢، ص ١١١؛ عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٢٠٨-٢١٦.

٨- الخزرجي، العقود، ج ٢، ص ٩٥. المقصود بهذه العبارة منطقة تهامة التي كانت تساهم بقسط كبير في موارد السلطنة.

٩- من بين الألقاب في وقفيات السلطانيّة الرسوليّة لقب "قَامِع الْخَوَارِج وَالْمُتَمَرِّدِين، مُبِيْد الطُّغَاة وَالْمُلْحِدَيْن". أنظر: محمد عبد الحميد سعيد، "الخروج عن طاعة السلطان في اليمن الرسولي: المواقف والمصطلحات بين

المملوكي، بل أنّها أصبحت أكثر من أي وقت مضى مهدّدة في شرعيتها من خلال نجاح إمام الزيديّة المتمتّع بكاريزما العلم والشرف في الاستقلال باليمن الأعلى ومحاولة دخول اليمن الأسفل.

لم يدخل أئمة الزيديّة في مواجهة حاسمة مع السلطنة المنهكة مع بداية أيام السلطان الجديد بل دعّموا الملوك الثائرين منذ أواخر زمن المجاهد علي، [١٠] ودعموا أشراف شمال تهامة في محاولتهم للخروج على الأفضل عباس وهجومهم على مدينة زبيد عاصمة التهائم،[١١] ولكنّهم أعانوا بالخصوص "ملك الأمراء" الأمير نور الدين محمد بن ميكائيل الذي تسلطن في شمال تهامة منذ سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م مدعوما بالأشراف وببعض القبائل، وقد أجهدت حربه السلطان المتوفى وأرهقت خليفته، ولم تتمكّن عساكر السلطنة من القضاء عليه إلاّ سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م أي بعد سنوات عشر من الكرّ والفرّ انتهت باحتماء الأمير الثائر بمناصريه في اليمن الأعلى حيث توفي سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م، أي سنة واحدة بعد وفاة الأفضل عباس ذاته. [١٢]

كانت أيام الأفضل أياما عصيبة خاصة أنّ إمام الزيديّة الناصر صلاح الدين (قام ما بين سنتي ٧٧٣-٧٩٣هـ/١٣٧٢-١٣٩١م) تحوّل بالإمامة من مرحلة السيطرة على اليمن الأعلى إلى مرحلة تهديد بني رسول في مناطق نفوذهم المباشرة حيث هاجم مدينة الجند الواقعة شمالي تعز العاصمة وعلى الطريق إليها وذلك في سنة ستّ سبعين، ثمّ هاجم زبيد عاصمة تهامة اليمن في السنة التي تليها، وكان مصير الحملتين الفشل، ولكنّهما أربكتا السلطان الأفضل الذي أصبح مهدّدا في عقر داره. [١٣]

أمّا قبائل تهامة وخاصة "المَعازبة" و"القُرشيون" فواصلت "فسادها" كلّما سنحت لها الفرصة، وردّ عليها الأفضل بعنف والده المجاهد، فأحرق قرية القرشيين وأخذ نصف خيولهم سنة خمس وستين وسبعمائة، وقبض على شيوخهم "فوسّط منهم خمسة نفر وسمّر ثلاثة وشُنق

المرجعيّة الفقهيّة والدعاية البلاطيّة"، أشغال الملتقى الدولي الخامس حول "الحركات الاجتماعية في العالم العربي الإسلامي"، تونس ١٠-١٢ أفريل ٢٠٠٨، منشورات جامعة تونس ٢٠١١. "الخوارج" لا علاقة لهم بالفرقة المعروفة وإنما المقصود الخروج عن طاعة السلطان.

[١٠] - الخزرجي، العقود، ج ٢، ص ١١٧.

[١١] - نفس المصدر، ج ٢، ص ١٢١-١٢٧.

[١٢] - انظر، أخبار هذه المواجهة في: الخزرجي، العقود، ج ٢، ص ٩٥-١٢٩.

[١٣] - انظر، أخبار هذه المواجهة: الخزرجي، العقود، ج ٢، ص ١٣١-١٣٣.

الباقون" في مناسبة ثانية. [١٤] أمّا المَعازبة فقطع نخيلهم في مناسبة أولى، وأخذ خيولهم في مناسبة ثانية، وقطع أكثر من خمسين رأسا من رؤوس رجالهم في مناسبة ثالثة. [١٥]

هكذا عاش الأفضل سنوات سلطنته شاهرا سيفه في وجوه الخارجين والقائمين والمفسدين،[١٦] ولكنّه عاشها أيضا "ممتشقا" قلمه لترميم هيبة السلطنة فساهم عن طريق مؤلفاته في حملات الدعاية المستمرّة التي كان البلاط يقوم بها منذ أيام السلطان المؤسس من أجل الدفاع عن السلطنة وتلميع صورة الأسرة والتغني بشرعيتها.

أخذت الدعاية وجوها كثيرة تركت آثارها في كتابات عديدة ومن ضمنها الكتابات التسجيليّة التي كانت تحلّي العمائر السلطانيّة أو تلك التي كانت تنقش على النقود أو الأواني المعدنيّة، وكذلك تلك التي ترسم بالكلمات شعرا ينشد في البلاط ويخرج منه متغنيا بمآثر السلطان القائم، أو تلك التي تنبعث من مؤلفات تنسب للسلطان نفسه مثلما هو شأن المؤلفات العديدة التي ارتبطت عناوينها باسم السلطان الأفضل عباس ومن ضمنها كتاب "نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء" وكتاب "العطايا السنيّة". [١٧]

الكتابات الدعائيّة المستعملة في هذه الدراسة:

- كتاب "العطايا السنيّة" وكتاب "نزهة الظرفاء" للأفضل عباس:

اشتهر السلطان الأفضل عبّاس على غرار آبائه من سلاطين الأسرة الرسوليّة بالمساهمة في حركة الـــتأليف العلمي بوضع عدّة كتب في مجالات مختلفة مثل كتب الأنساب والتواريخ وتراجم الرجال وكتب الفلاحة والطب والبيطرة وعلم الفلك، [١٨] ومن أهم مؤلفاته المطبوعة كتاب "العطايا السنيّة في المناقب اليمنيّة" الذي يحتوي على تراجم فقهاء اليمن وكبرائها وملوكها

---

[١٤] - نفس المصدر، ج ٢، ص ١١٦، ١٢٨.

[١٥] - نفس المصدر، ج ٢، ص ١١٦، ١٢٨.

[١٦] - تستعمل مصادرنا مصطلح "الخروج" عادة بالنسبة للأمراء والملوك ومصطلح "القيام" بالنسبة للأئمة ومصطلح "الفساد" بالنسبة للقبائل مشرّعة بذلك لردود الفعل القصوى ضدّها بمقتضى أحكام الحرابة. أنظر: سعيد، "الخروج عن طاعة السلطان".

[١٧] - الأفضل عبّاس الرسولي، نزهة الظّرفاء وتحفة الخلفاء، تحقيق نبيلة عبد المؤمن داود، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

[١٨] - انظر، عبد الله محمد الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م؛ أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٤.

ووزرائها مرتّبة على حروف المعجم. وقد قام المؤلف بانتقاء معلومات الكتاب وأعلامه بكيفيّة تبيّن هاجس الشرعيّة والرغبة في تمجيد السلاطين الآباء والأسرة الرسوليّة عامة، وفي بناء مجده الشخصي بالظهور بمظهر السلطان العالم.

أمّا كتابه "نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء" فهو كتاب في "السياسة الشرعيّة"، ويبدو أنّه ليس الوحيد في بابه، حيث تنسب للأفضل عناوين أخرى في نفس الموضوع هي: "نظم السلوك في الدخول إلى حضرة الملوك"، و"معرفة الإمام وشروطه"، و"سياسة الجيوش وتدبير الحروب والإمارة وشروط الولاية وأحكام الشرع". [١٩]

عرّف الأفضل كتاب "نزهة الظرفاء" بأنه: "مختصر يشتمل على رسوم الخلفاء وآداب خدمتهم والتحيّة والسلام عليهم، وتقبيل الأرض بين أيديهم، وغير ذلك من آداب مجالستهم وآدابهم في أنفسهم، وبيان ما يجب عليهم" . [٢٠] وقد جعله على ثلاثة أبواب:

- الباب الأوّل: في آداب خاصّة الملوك وجلسائهم وعلمائهم.
- الباب الثاني: في آداب الملوك أنفسهم وما يجب عليهم.
- الباب الثالث: فيما لا يسع الملوك والرؤساء جهله من أنواع العلوم."

لقد كان بإمكان السلطان الأفضل أن يأمر أحد علماء اليمن أو الوافدين عليه أن يضع له كتابا في التراجم مثل كتاب "العطايا السنيّ" أو كتابا في الساسة الشرعيّة مثل كتاب "نزهة الظرفاء"، ولكنّه عمل على أن يكون صاحب الفكرة والإنجاز لغايات دعائيّة تتجاوز الهدف العلمي من الكتابين.

- قصيدة الخزرجي في رثاء السلطان الأفضل عباس:

يــعتبر الشعر من أبرز وسائل الدعاية للسلاطين والسلطنة من خلال عمليتي الإنشاد التي يقوم بها الشاعر وكذلك من خلال الجائزة السلطانيّة التي ينعم بها الحاكم. يحصل الشاعر على مبتغاه من الإنعام في مجلس السلطان، ويحصل هذا الأخير على مبتغاه من خلال القصيدة التي ستخرج إلى الناس بالحفظ والتدوين متغنيّة بخصاله مشهرة لفضائله، ويخرج معها خبر الجائزة ناشرا للكرم السلطاني ويزداد الخبر تألقا كلما ازداد حجم الإنعام السلطاني غزارة.

---

[١٩]- توجد أجزاء من هذه المؤلفات ضمن ما يعرف بدفتر "الأفضل عباس"، ص ٣٩ -٤٧، ٨٠ -٨١، ٤٥٦-٥٠١.

. Varisco, D. M. and Smith**,** G. R., **The Manuscript of al-Malik al-Afdal**

[٢٠]- الأفضل عباس، نزهة الظرفاء، ص ١٥.

نحن نعرف أنّ عددا كبيرا من الشعراء دخلوا البلاط الرسولي وتغنوا بخصال السلاطين وساهموا في تلميع صورهم، ونعرف أنّ عددا منهم دخل على السلطان الأفضل عباس ومن بينهم الفقيه النسابة والمؤرخ موفق الدين علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)، وقد مدح هذا الأخير السلطان بغرر القصائد. [٢١]

وقد اخترنا قصيدة أنشدها الخزرجي في مجلس عزاء أقامه السلطان الأشرف إسماعيل على إثر وفاة والده الأفضل عباس. تقول هذه القصيدة متغنية بخصال السلطان المتوفى متحسّرة على أيامه ومتغنيّة في نفس الوقت بوريثه:

بكـــــــــــــت الخلافـــــــــــة والمقـــام الأعظـم ***
والمـــــلك والديـــــــــــــن الحنـــــــــيف القيـــــم
والشمـــــــــــــس والقمـــــــر المنيـــــر كلاهـــما ***
والأرض تبكـــــــي والسـما والانجـــــــــــــــــم
والبيـــت والحـــــــــــرم الشريـــــــف بمكـــــــةٍ ***
والحجـــــــر والحجـــــر اليمـــــاني الأسحـــــــــم
والبيـــض والـــبـــيـــــض المهـنـــــــــدة الظـــــــبا ***
والسمهريـــــــــة والقســـــــــي والأسهـــــــــم
ومـــــــــدارس العلـــــم الشريـــــف وأهلـــــــه ***
والمسلمـــــــــــــــــون فصيحهـــم والأعجـــــــم
جزعـــــاً عـلـــــى الملـــــك المـــــتوج بالبـــــها ***
مـــــن قبـــــل يـعقـــــد تاجـــــه ويـنـظـــــم
الأفضل بـــن علـــــــي الـــــذي ساد العلـــــــى ***
وبنـــــى منـار المجـد وهـــــــو مهـــــــــــدم
وحمـــــى ثغـــــور المسلمـــين بعـــــزمـــــه ***
والسيف يقطـــــــــــــر مـــن جوانبه الـــــــــدم
الأروع الطـــلـق الفُرافِصـــــــــــةُ الهَـــــــــو ***

---

[21]- أنظر ترجمته في: عبد الوهّاب البريهي، طبقات صلحاء اليمن المعروف باسم تاريخ البريهي، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤، ص ٢٩١-٢٩٢؛ راضي دغفوس، "اليمن في عهد الولاة "، كراسات تونس، عدد ١٠٧-١٠٨، تونس ١٩٧٩، ص ٣-١٦٢.

ر القَسْـــــــــــــــــــــــــورُ ***الـــوَرْدُ*** الهـزَبْر الضَّيـــغم
والعارض الهـتـــــــــــن الأجـــــــــــــش المرجحن ***
الوابـــــل الغـــــــدق الملـــث المـــــثـجـــــم
والصـــــــــــارم الذكـــــــر الجـُــــــرازُ المَشْرَفـــيّ ***
القاطـــــــــع العَضْـــــب العضـــــــوض المخـــــذم
ومصرف الملك الجمـــــــــــــــوح ولـم يـــــــزل ***
بالسيـــــــف ينقـــــــض ما يشاء ويبـــــــــــــــرم
ملـــــــك له عنـــــــت الملـــــوك وأذعـــــنـــــت ***
قهـــــــــــراً ودان الأغلـــــــــــــــــب المتعـــــظم
وأطاعـــــــــــه الدهـــــــــر العصـــــي وأهلـــــه ***
طوعـــــاً وكـــــــرهاً كافـــــــر أو مســـلـــــــــم
فأتـــــــاه حكـــــــــم الله جـــــــــل جلالـــــــه ***
وهـــــو المليك العـدل فيـــــما يحـــكـــــــــــم
حكـــم علـــى كل البريـــــــة لـــــم يكـــــــــــن ***
مستأخـــــــــر فيـــــــهـم ولا مســـــتقـــــــــدم
فتغيـــــر القـــــمـــــــر المنيـــــــــر لـفـقـــده ***
والشمـــــــــس كاسفة تنـــــــــــــــــوح وتلـطـــــــم
والأرض راجـــفـــــــــــة تمـــيـــــــد بأهـــلـــها ***
والجوّ مغْبـــــــــــر الجوانـــــــب مظـــلـــــــــم
وبكـــل أرضٍ مـــــــــــن تهامـــــة حســـــــــرة ***
وبكـــــــل بيتٍ فـــــــــــــي زبيـــــد مـــــأتـــــم
نزلـــت ملائكـــــــــة السمـــــــــاءِ لدفنـــــــــه ***
وملـــــــــــــــــــــوك يعرب فـــي العـزاء تقـدمـوا
سبأ وحـــميـــــــــر والعرنجـــج وابنـــــــــــه ***
وزهيـــــــــــر الشامـــي وياســـــر ينـــعـــــــم
والصـــعـــب ذو القـــرنـيـــــــن والـهـــــدهـــاد ***
والصـــــباح ذا يبكـــــــي وذا يتـــرحـــــــــــــم

وأتـــــى أبـــو ـــــــرب وحســـان ابنـــــــــــه ***
وشقيقـــه وأبـــــــــــــو الضجاعم ضجـعـــــــم
ومـــــلـــوك غســـــان ولخـــم وكنـــــــــــــــدة ***
وأبـــــــــى الجلنـــدي وابنـــــه والأَيـــهـــــــــم
وأتـــى الشهيـــــد ويوســـفُ وســلـــيـــلـــــــــه ***
عـمـــــــــر وداود الهـــزبـــــر الضيـــــغـــم
وعلـــــي بـــــــن داود المجاهـــــد قائـــــــــم ***
يبكـــي ودمـــــع العيـــــن قانٍ عنـــــــــــــدم
يا وحشـــــــــة الدنيا ووحشـــــــــــة أهلـــــها ***
إذ قيـــــــل مات التبـعـــــــــي الأَعـــــــــظم
مـــن للمواكـــب والكتـــائب فـــــي الوغـــــــى ***
والخـــل فـــــــي أرسانـــهـــــــا تتـحمـحـــــم
من للطـــغـــــــاة وللبـــغـــاة مـــدمـــــــر ***
مـــــــــن للضـــــلال وللـــفســـــاد مهـــــدم
من للكتـــاب يفضـــــه ويحجـــــــب عـــــــن ***
مضـــــمونه فـــــي صـــــدره ويترجـــــــم
هيهـــات ولّـــى الفضـــل بعـــــدك كلـــــــــه ***
والجـــــود ولـّـــى والـــطا والأَنـــــــعـــــم
يا أيـــــها الليـــث الهصـــور لـــدى الوغـــى ***
يا أيـــها الـــــــــــبر الرحيـــــــــم الأكـــــرم
يا أيها الجبـــل الأشـــــــــــــــم المرتقـــى ***
يا أيـــهـــا البـحـــــر الـــخِضـــــمُ الخضـــــرم
يا أَيـــــها القمـــــــــر المنـــــير ضيـــــاؤُه ***
يا أَيـــــها الغيـــــث الهتـــــــون المثجـــــم
غالتـــك غائلـــة الـــــردى صـــــرفـــاً ولـــــــم ***
يغـــــــــن الحســـام ولا اللســـــان الـــــــــذم
فلئـــــــــــن ذهبـــــت فـــما ذهـــــبت حقيقةً ***

ولـــئن مضيـــــت فما مضـــــــت لك أنعـــــــم
ودعـتـــــــــنا وتركـــــت فيـــنا مـاجـــداً ***
يبنـــــي مآثـــــر جَفَـــنـــــةٍ ويتـــمـــــم
الأشـــــــرف المـــــلك الـــذي فـــي تاجـــه ***
قمـــــر يلـــــوح وفـــــي المقامـــة ضيـغـــــم
الحـــــازم اليـــقـــظ الجـــــواد اليعربـــــي ***
الهـــزبـــــري الأَفعـــــوان الأَرقـــــــــم [٢٢]

- نقش حصن الدُملؤة (٧٦٨هـ/١٢٦٧م)

يقع حصن الدملؤة في مديرية الصلو، في محافظة تعز على بعد ستين كيلومترا جنوب شرق مدينة تعز عاصمة الدولة الرسوليّة. يتميّز الحصن بالمناعة الطبيعيّة التي عزّزتها تدخّلات السلاطين الذين سوّروا الموقع وجهزّوه بصهاريج لحفظ المياه وتأمين صمود الحامية المكلّفة بحماية خزائن الدولة التي كانت تحفظ فيه، وقد قام السلطان الأفضل عباس بتجديد البوابة الرئسيّة للحصن وخلّد هذا العمل بنقش على عتبة هذه البوابة.

نص نقش حصن الدُملؤة:

"بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً أمر بعمارته مولانا ومالك عصرنا السلطان بن السلطان العالم العادل ضرغام الإسلام غياث الأنام سلطان الحرمين والهند واليمن مولانا السلطان الأفضل من الأنام والملك المجاهد أمير المؤمنين العباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول خلد الله ملكه ونصره رفعت العتبة المباركة بتاريخ الرابع والعشرين من رجب سنة ثمان وستين وسبعمائة مؤيداً بالنصر والتوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم".

- درهم للسلطان الملك الأفضل ضرغام الدين:

وصلتنا من العهد الرسولي عدّة قطع نقديّة من ضمنها هذا الدرهم الفضيّ المضروب في دار السكة بثعبات سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٦م، [٢٣] وهي مدينة أميريّة تقع في ضواحي تعز، وقد

[٢٢]- الخزرجي، العقود، ج ٢، ص ١٧١-١٧٣. حذفنا الأبيات من ٣٦ إلى ٣٩ لخلوها من المعاني الدعائيّة، كما اكتفينا بثلاثة أبيات من جملة خمسة عشر بيتا في مدح السلطان الأشرف إسماعيل.

ضربت بها النقود منذ أيام المجاهد علي الذي سوّر الموقع بعد أن كان مجرّد منتزه سلطاني.[٢٤]

يبلغ وزن هذا الدرهم الفضي ١.٨ غم، ويبلغ قطره فهو ٢٥ ملم، وهو خال من الرسوم أو الرنوك التي تزيّن أحيانا النقود الرسوليّة وترمز عادة إلى مدينة الضرب. أمّا الكتابة التسجيليّة التي نقشت عليه فهي تلك التي نجدها على بقية النقود الرسوليّة بداية بالبسملة والشهادتين وصولا إلى اسم الخليفة واسم السلطان وسنة الضرب ومكانه، وتتوزّع هذه الكتابة كما يلي:

الوجـــــــــــــــه:

- **المركز**: بسم الله الرحمن الرحيم/ لا اله إلا الله محمد/ رسول الله أرسله/ بالهدى ودين/ الحق.
- **الطـــــوق**: ليظهره على الدين كله الأئمة رضي الله عنهم أبو بكر عمر عثمان علي.

الظـــــــــــهـــــــر:

- **المركز**: علي/ السلطان الملك/ الأفضل ضرغام الدين/ العباس بن الملك/ المجاهد.
- **الطوق**: الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين ضرب بثعبات سنة سبع ستين سبعمائة.

الوجـــــــــــــــه **الظـــــــــهـــــــر**

---

[٢٣]- صورة هذا الدرهم والمعلومات الخاصة به مأخوذة عن الباحث محمد قاسم الدبعي، "مسكوكات الدولة الرسولية ٦٢٦ - ٨٥٨ هـــ"، بحث قدّم في مؤتمر " تعز عاصمة اليمن الثقافية على مر العصور" في الفترة ٢٥-٢٧ / مايو / ٢٠٠٩م.

[٢٤]- كانت تعز متنزها لسلاطين بني رسول ثمّ أصبحت مدينة مسوّرة منذ سنة ٧٣٣هـــ/١٣٣٣م وذلك في أيام السلطان المجاهد، كما أقيمت فيها المؤسسات السلطانيّة وخاصة دار الأدب ودار الضرب.

Smith, G. R. "***The Yemenite Settlement of Tha'bât***: historical, numismatic, and epigraphic notes," *Arabian Studies*, 1, 1974, pp. 119-34.

إنّ ما يشدّ الانتباه في الكتابة التسجيليّة الواردة على هذا الدرهم هو ذكر الخلفاء الراشدين الأربعة، وكذلك ذكر الخليفة "المستعصم بالله أمير المؤمنين" رغم مقتله أثناء اجتياح التتار لمدينة بغداد، سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م أي منذ أكثر من ولا شكّ في أنّ لهذا الذكر ظروف وحيثيات تحكمه وتوجهه. (٢٥)

- الكتابة التسجيليّة على الأواني الرسوليّة:

وصلتنا من العهد الرسولي عدّة أواني معدنيّة تحمل رسوما وكتابات تسجيليّة، ومن ضمن هذه الأواني إبريق معدني وصينيّة يحملان اسم وألقاب السلطان الأفضل.

فأمّا الإبريق فكتب عليه: "عزّ لمولانا السلطان الملك الأفضل العامل الغازي المجاهدي المرابطي المثاغر المؤيد المنصور سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين ملك البحرين خادم الحرمين سلطان الإسلام والمسلمين عزّ نصره". (٢٦)

وأمّا الصينيّة فكتب عليها: "عزّ لمولانا ومالكنا السلطان ابن السلطان ابن السلطان العامل الكامل المؤيد المنصور الملك الأفضل ضرغام الدنيا والدين سيّد ملوك العالمين العباس بن علي ابن داود عزّ نصره". (٢٧)

رغم ما يبدو من اختلاف بين الكتابة التسجيليّة القصيرة المنقوشة على الأواني المعدنيّة أو النقود وكذلك على المعالم الرسوليّة من جهة وبين بقيّة النصوص النثريّة أو الشعريّة فإنها في النهاية تشترك في المصدر وفي الأهداف التي وضعت من أجلها، حيث أنّها صادرة عن البلاط الذي وجّه شكلها ومحتواها بما يخدم السلطنة والسلطان المحتاج إلى تلميع صورته، فكيف ذلك؟

---

[١] - للتعرف على بعض خصائص النقود الرسوليّة انظر: فؤاد عبد الغني محمد الشميري، تاريخ اليمن سياسيا وإعلاميا من خلال النقود العربية الإسلامية للفترة ما بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ١٣٧-١٦٣.

[١] - ربيع حامد خليفة، الفنون الزخرفية اليمنيّة في العصر الإسلامي، الدار المصريّة اللبنانيّة، بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص ٣٨.

[٢] - أخذنا هذا النقش من المرجع التالي:

Berchem, Max Van, "Notes d'archéologie arabe. étude sur les cuivres damasquinés et les verres émaillés, inscriptions, marques, armoiries", *Journal asiatique*, Paris, Janvier-Février 1904, p. 69.

الأفضل من خلال الكتابة الدعائيّة:

تشترك عادة جلّ الكتابات الدعائيّة الرسوليّة في تقديم صورة مثاليّة للسلطان القائم لتقرّبه إلى قلوب الرعيّة وتبعث الهيبة في قلوب الخارجين عليه أو من يفكّر في الخروج، لذلك نجد في وثائقنا صفات وألقاب مفردة ومركّبة مصطفاة من المعجم السياسي السلطاني السائد في المشرق الإسلامي منذ عهد السلاجقة والأتابكة ومن المعجم الشعري العربي مع إضافات محليّة يمنيّة، فما هي هذه الصفات والألقاب وما هي دلالاتها؟

- السلطان العالم:

جاء لقب "السلطان العالم"، في نقيشة حصن الدُملؤة متقدما على كلّ ألقاب التعظيم والتفخيم، بل تقدّم اسم السلطان ذاته، وهي عادة دأبت عليها الدعاية البلاطيّة عل غرار ما كان سائدا في مجالات التأثير السلجوقي. [٢٨] ففي وقفيات المدارس السلطانيّة نجد عبارة "السلطان السيّد الأجل العالم" تسبق بقيّة الألقاب التي يوصف بها مؤسس الوقف، كما تلحق هذه الصفة بوالده كما هو شأن الأفضل عباس في بصيرة المدرسة الأشرفيّة التي أمر بإنشائها السلطان الأشرف إسماعيل في مدينة تعز، حيث وصفه الأفضل بأنّه "... مولانا السلطان الأجلّ السيّد العالم العامل العادل المرحوم المقدّس الملك الأفضل ضرغام الدين أوحد الملوك والسلاطين الدارج إلى رحمة ربّ العالمين العباس بن علي بن داود". [٢٩]

---

[١] - أُستعمل هذا اللقب ضمن ألقاب الملوك والسلاطين في المشرق الأيوبي والمملوكي، ويعود ظهوره إلى فترة سابقة حيث حمله معز الدولة أرسلان تكين أبي الفضل العباسي بتاريخ ٤٣٣هـ/١٠٤٢م. حسن الباشا، الألقاب الإسلاميّة في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنيّة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ٣٩٠. يوجد بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة "كرسي عشاء" باسم السلطان محمد بن قلاوون كتب عليه:"عز لمولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر المؤيد المنصور سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محي العدل في العالمين، مجير المظلومين من الظالمين، ناصر الملة المحمدية، ناصر الدنيا والدين ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي." وبغض النظر عن مكان صنع الإبريق فإنّ تبني النص التسجيلي وما فيه من ألقاب يدل على تأثيرات الحضارة السلجوقية في اليمن عبر مصر.

[٢٩] - الوقفيّة الغسانيّة، بصيرة المدرسة الأشرفيّة، ص ١، مخطوطة مصورة من دائرة الأوقاف لدى المؤلف. استعملنا ما جاء في بصيرة هذه المدرسة نظرا لغياب مثل هذه الديباجة في بصيرة المدرسة الأفضليّة التي وصلتنا مبتورة. هذا اللقب له علاقة بالعالم السلجوقي أيضا، فقد حمل السلاجقة لقب "العالم العادل"، مثل السلطان طغرل بن أرسلان شاه (ت ٥٩٠هـ/١١٩٤م).

كما جاء الحديث عن العلاقة بين السلطان والعلم في قصيدة الخزرجي متقدّما عن بقيّة الفضائل التي ألحقت بالأفضل. ونحن نعلم أنّ بني رسول سعوا إلى إبراز صورة السلطان العالم منذ أيام المظفر يوسف من خلال تبني هذا اللقب الشرفي [٣٠] ومن خلال تفعيل دلالاته عن طريق وضع مؤلفات في مختلف المجالات، وقد استطعنا إحصاء ما يناهز ثمانين كتابا منسوبة لسلاطين هذه الأسرة تناولت علوم الفلاحة والبيطرة والطبّ وعلوم الفلك والتاريخ والأنساب وغيرها من أصناف العلوم، وكان نصيب الأفضل منها النصيب الأكبر. [٣١]

لا نريد أن نخوض في مسألة المساهمة المباشرة لهؤلاء السلاطين في وضع المؤلفات العلميّة ومدى مصداقيّة نسبتها إليهم فهذا عمل عقيم حسب رأينا ولكنّنا نريد أن ننظر إلى الأغراض العلميّة التي تناولتها هذه المؤلفات، وإلى الغايات التي وضعت من أجلها وكذلك حملت من أجلها أسماء السلاطين، وهي حسب تعاملنا معها غايات دعائيّة سياسيّة. وممّا يؤكد الصفة الدعائيّة للمؤلفات السلطانيّة الرسوليّة أنّ مصادرنا لا تشير إلى مؤلفات تنسب إلى ملوك الأسرة الذين لم يتولوا السلطنة، وفي مقابل ذلك تطنب في الحديث عن شيوخ من يتولى منهم السلطنة وعن رعايتهم للعلماء والمؤسسات العلميّة وعن مؤلفاتهم مثلما يظهر في نهاية كلّ فصل من فصول كتاب "العقود اللؤلؤيّة" للخزرجي. [٣٢]

تظهر الصفة الدعائيّة للمؤلفات السلطانيّة في تقديمها لصورة السلطان العالم بمختلف الطرق، وفي هذا المجال تكفي العبارات التي تحدّث بها الأفضل عباس عن أسر والده في "العطايا السنيّة" لفهم بعض الغاية الأساسيّة من هذا الكتاب وهي الغاية الدعائيّة لشخص

---

[٣]- حكم المظفّر ما بين ٦٤٧-٦٩٤ هـ / ١٢٤٩-١٢٩٥م، وحمل أيضا لقب "العالم" مصحوبا ببقيّة ألقاب التعظيم والتفخيم مثلما جاء في نص تسجيلي على صينيّة تنسب إليه "عزّ لمولانا السلطان الملك المظفّر العالم العامل العادل المجاهد المرابط شمس الدنيا والدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول عزّ نصره." خليفة، الفنون الزخرفيّة، ص ٣٤.

[٣١]- وردت صفة "العالم" في ألقاب بني أيوب في مصر والشام ومن بعدهم في ألقاب المماليك، حيث نقرأ في لقب سلطان المماليك ما يلي: "السلطان الأعظم المالك، الملك الظاهر، الأجل العالم العادل، المجاهد...". أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩١٢-١٩٣٨، ج ٧، ص ٣٧٩-٣٨٤.

[٢]- يقول في شأن الأفضل: " وكان ملكا ... فقيها مشاركا للعلماء في عدّة فنون من العلم عارفا بالنحو والآداب واللغة والأنساب وسير العرب وسير الملوك، وصنّف عدّة كتب..." الخزرجي، العقود، ج ٢، ص ١٣٥-١٣٦.

السلطان ولأسرته، فقد كتب الأفضل في شأن والده الأسير ما يلي: "... ثمّ سافر للحج في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وجرت له القصّة المشهورة ودخل مصر وحضر عند سلطانها في جماعة من الفقهاء المتفقين، فدار معهم في كلّ فنّ وباحثهم في كلّ علم، حتى سلب قلوبهم وجلب عقولهم فعظّموا قدره وسيّدوا ذكره، وحينئذ خاف سلطان مصر من أن يبايعوه ويدخلوا تحت طاعته لما اتضح لهم من أهليته وكماله..." [٣٣]

هكذا تحوّل السلطان الأسير المغترب إلى فقيه عالم بلغ درجة الإفتاء في "كلّ فنّ" ونال قدرة المباحثة "في كلّ علم"، وكانت قدرته تسيّد الذكر وتسلب القلوب وتجلب العقول وتعظّم القدر وتدعو إلى بيعته والدخول تحت طاعته من قبل علماء مصر ونزع طاعة السلطان الناصر. [٣٤]

لقد حاول الأفضل بهذا الخبر الذي انفرد به وبالعبارات التي اختارها لصياغة تفاصيله أن يمحو ذلّ القيود التي كبّلت والده وهو يقبّل الأرض ثلاثا فحوّل المشهد المذلّ إلى مشهد معزّ ليمحو عنه وعن الأسرة ذلاّ يشمله بالوراثة فيعبث بمجده ويحدّ من هيبته في عيون رعيته وخاصة العلماء منهم ورجال الدولة الذين لهم قدرة على قراءة الكتاب.

وإلى نفس "الجمهور" وجّه الأفضل عباس كتبه التي وضعها في مسائل السياسة الشرعيّة ومن ضمنها كتاب "نزهة الظرفاء"، وكانت لهذه الكتب نفس الغاية وهي الغاية الدعائيّة لصورة السلطان العالم، كما كان الهدف أيضا تأكيد الهيبة من خلال قواعد السلوك التي وضعها لمن له علاقة بالمراسم السلطانيّة.

ففي الباب الثالث من الكتاب يبدأ الأفضل حديثه وينهيه بالتأكيد على فضل العلم الذي لا يرغب فيه كلّ الناس، بل يرغب فيه "الخواص من الناس، وهم أصحاب الأنفس الزكية والهمم العالية"، [٣٥] وبما أنّ الملوك من هذه الطينة من الناس ذات "العقول الوافرة" فإنّهم يعتنون بسائر العلوم دقيقها وجليلها ويعظّمون شأنها ويحثّون عليها، [٣٦] ذلك أنّ "في العلم بقاء العزّ ودوامه، وفي العقل بقاء السرور ونظامه، ومن اجتمع فيه العلم والعقل فقد اجتمعت فيه اثنتا عشرة، الفقه

---

[٣٣]- الأفضل عباس، العطايا، ص ٤٨٢.

[٣٤]- قارن بين ما قاله الأفضل وبين ما كتبه ابن تغري بردي بشأن المجاهد. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٧٨-١٨١، ٢٠٧.

[٢]- الأفضل عباس، نزهة الظرفاء، ص ٥٣-٥٤.

[٣]- نفس المصدر، ص ٦٨.

والأدب والنقاء والأمانة والنصيحة والحياء والرحمة وحسن الخلق والوفاء والصبر والحلم والمداراة، وهذه الخصال من خواص آداب الملوك...." [٣٧]

وبين بداية الباب ونهايته يتحفنا الأفضل بما "لا يسع الملوك والرؤساء جهله من أنواع العلوم" اللغوية والشرعيّة والفلسفيّة والإلهية، وقد دأب عند استعراض هذه العلوم وتصنيفها على استعراض جانب من معارفه في أغراضها وكأنّه يريد أن يؤكد للقارئ معرفته بها وبالتالي سعة علمه وبالتالي اجتماع "اثنتي عشرة خصلة" من خصال الملوك في شخصه على غرار ما حصّل والده من علم كاد يرفعه إلى عرش السلطنة المصريّة، وكأنّه يقول لكلّ من يشكّك في شرعيته بأنّه يحقّق بدوره شرطا أساسيا من شروط استحقاق السلطنة وفق المذهب الشافعي والعقيدة الأشعريّة، ونعني بذلك شرط العلم، [٣٨] إلى جانب شروط أخرى حاول أيضا أن يبيّن مدى تحقيقها ومن ضمنها شرط العدل.

- **السلطان العادل**:

جاء هذا اللقب في نقيشة حصن الدُملؤة مباشرة بعد لقب "العالم"، فهو "السلطان بن السلطان العالم العادل"،[٣٩] وبنفس هذا الترتيب يرد لقب "العادل" في بصائر المدارس، حيث وصفت بصيرة المدرسة الأشرفيّة السلطان الأشرف إسماعيل بكون: "العالم العادل سلطان الإسلام والمسلمين ناشر جناح العدل على العالمين"،[٤٠] أمّا والده الأفضل عبّاس فهو في نفس الوثيقة "مولانا السلطان الأجلّ السيّد العالم العامل العادل المرحوم المقدّس الملك الأفضل ضرغام الدين". [٤١] كما لُــقّب الأفضل في الكتابة التسجيليّة على إبريقه ب"محي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين".[٤٢] أمّا في كتاب "نزهة الظرفاء" فجعل السلطان الأفضل

---

[٤] - الأفضل عباس، نزهة الظرفاء، ص ٤٤.

[١] - يشترط الفقهاء شروطا عديدة في الحاكم من بينها العلم، انظر: أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م، ص ١١١-١١٢؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج ١، ص ٣١-٣٩.

[٣٩] - يرد هذا اللقب بنفس الترتيب ضمن ألقاب سلاطين المماليك.

[٤٠] - الوقفيّة الغسانيّة، بصيرة المدرسة الأشرفيّة، ص ١.

[٤١] - نفس المصدر والصفحة.

[٥] - خليفة، الفنون الزخرفية، ص ٣٨. يرد نفس اللقب: "العادل" و"محي العدل في العالمين" في النص التسجيلي لكرسي السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ولا ينفرد هذا السلطان في مصر بهذه الألقاب بل كانت شائعة بها، انظر،

العدل "أول صفات الملوك"، [٤٣] بل أنّه أطنب في الحديث عنه مستدلا بآيات من القرآن وبأحاديث منسوبة للنبي (ﷺ) وأخرى من آثار وأخبار الملوك العظام.

قدّم الأفضل عباس صفة العدل على بقيّة صفات الملوك لأنّ العامل به إنّما يعمل على تعمير بلاده كما يعمل على إثقال ميزان حسناته لأنّ هذا السلوك هو استجابة لأمر إلهي بالعدل والإحسان،[٤٤] ولأنّ "عدل السلطان يوما واحدا أفضل من عبادة سبعين سنة"، [٤٥] ولأنّ "أحب الناس إلى الله تعالى وأقربهم إليه سلطان عادل"، [٤٦] ولأنّ كلّ صلاة يصليها السلطان العادل "تعدل تسعين ألف صلاة".[٤٧]

هذا يعني أنّ العدل كان من الخصال التي حرص سلاطين بني رسول مثل غيرهم من السلاطين على التباهي بها لسبب بديهي وهو أنّ العدل في الرعيّة هو شرط من شروط الحاكم، كما أنّه يمثّل المقابل المفترض للطاعة الواجبة من قبل هذه الرعيّة، فالسلطان "المتبجّح" بعدله هو في نهاية الأمر سلطان يؤكّد على استجابته لشروط الولاية ويطالب بواجب الطاعة من رعيّته لاسيما بالنسبة للأفضل عباس الذي عاش أيّام سلطنته عاملا على تطويع الخارجين عليه بالسيف والقلم معتبرا هذا العمل قتالا "للكفرة والمشركين" وتدميرا "للطغاة وللبغاة"، وتهديما "للضلال والفساد" أي جهادا في سبيل نصرة الدين.

- السلطان المجاهد:

"الملك المجاهد أمير المؤمنين" بهذه الألقاب الشرفيّة وصفت نقيشة حصن الدُملؤة السلطان الأفضل عباس، كما وُصف في الكتابة التسجيليّة على إبريقه بمجموعة من الألقاب الشرفيّة الأخرى المستمدّة من المعجم الجهادي فهو: "الغازي المجاهدي المرابطي المثاغر المؤيد

Heba Youssef, "Le décor épigraphique sur les moyens d'éclairage à l'époque mameluke en Egypte ", *Abagadiyat*, 2007, pp. 63-91.

[٦] - الأفضل عباس، نزهة الظرفاء، ص ٣٨.

[١] - "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"، سورة النحل، الآية ٩٠. الأفضل عباس، نزهة الظرفاء، ص ٣٨.

[٢] - الأفضل عباس، نزهة الظرفاء، ص ٣٧.

[٣] - نفس المصدر، ص ٣٨.

[٤] - نفس المصدر، ص ٣٨.

المنصور سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين".[٤٨] أمّا الخزرجي فوصفه بصاحب "الكتائب"، ومدمّر "الطغاة" و"البغاة"، ومهدّم "الضلال" و"الفساد"، ووصفه بحامي الثغور الذي لا يزال سيفه يقطر من دم أعدائه وذلك في قوله:

وحمى ثغـــور المسلمـين بعزمـــه *** والسيف يقطـر مـن جوانبه الـدم

لقد أُطلق لقب "المجاهد" مع مرادفاته على السلطان الأفضل عباس شرفيا كما أُطلق من قبل على السلطان نور الدين محمود بن زنكي (ت ٥٦٩هـ/١١٧٤م) والسلطان صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م)، وأطلق أيضا على سلاطين المماليك، ذلك أنّ هذا اللقب ظهر وتوسّع استعماله ضمن ألقاب الحكام في الشام ومصر في محيط جهادي مرتبط بمواجهة الصليبيين والتتار، لذلك نجده ضمن أسماء وألقاب سلاطين السلاجقة والأتابكة والأيوبيين والمماليك الذين صمدوا طيلة القرون الجهاديّة أمام أخطار حقيقيّة في غياب قدرة الخلافة العباسيّة على المواجهة.[٤٩] وبالإضافة إلى ذلك فإنّ جهاد "الكفرة والمشركين" كان بالنسبة لهؤلاء السلاطين "حجّة" وسندا للحكم يرجّح كفّة شروط استحقاقهم في ميزان الشرعيّة على عائق الأصول الأجنبية، بل أنّه أصبح من أهمّ شروط التسلطن ومظاهره، حتى أنّ سلطان مصر المملوكيّة تحدى سلطان اليمن الرسولي بقوله: "إن كنت ملكا فاخرج والتق بالتتّار".[٥٠]

لكنّ سلاطين اليمن كانوا بعيدين جغرافيا عن ميادين ملاقاة التتار وعن "الجهاد" وعن "الثغور" التي تحمى بالعزم وبالسيوف التي يقطر من جوانبها الدم، وعن "الرباطات" التي يرابط فيها المرابطون في وجه "الكفرة والمشركين"، ومع ذلك اعتبروا أنفسهم في وضع جهادي ضدّ "الخوارج والمتمردين والطغاة والملحدين"، وتلقبوا بألقاب شرفيّة مأخوذة من المعجم الجهادي،

---

[٥] - استعملت هذه الألقاب مضافة إلى ياء النسب في مصر بالنسبة لكبار العسكريين كنواب السلطنة، الباشا، الألقاب الإسلاميّة، ص ٤٥٢. ولا ندري سبب وسياق استعمالها بالنسبة لإبريق الأفضل.

[١] - بالنسبة للألقاب التي لها علاقة بالجهاد في العالم الإسلامي انظر: الباشا، الألقاب الإسلاميّة، ص ٤٤٩-٤٥٣، ٤٦٦-٤٦٧. أمّا بالنسبة لمصر المملوكيّة فانظر،

Heba Youssef, " le décor épigraphique'', pp. 63-91.

[٢] - خاطب الظّاهر بيبرس السلطان المظفّر الرسولي سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م قائلا: "والملك هو الذي يجاهد في الله حقّ جهاده، ويبذل من نفسه في الذّبّ عن حوزة الدّين، فإن كنت ملكا فاخرج والتق بالتتّار". النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت، ط ١، القاهرة، سفنكس للطباعة، الكتاب العشرون من سلسلة التراث الإسلامي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ج ٣، ص ٩٧.

بل أنّ أحدهم وهو المجاهد علي والد السلطان الأفضل اختار الجهاد لينحت منه لقبه المفرد، في حين قامت مصادرهم بالإعلاء من شأن بعض المساهمات الظرفيّة في جهاد "الكفار" هنا أو هناك من البلدان القريبة،[٥١] حتى أنّ السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون استهزأ بالسلطان المؤيد داود (ت ٧٢١ هـ/١٣٢١ م) جدّ الأفضل عباس الذي راسله مخبرا بانتصاره على بعض الخارجين على سلطانه فردّ عليه معتبرا ذلك "تبأ لا يُعتد بذكره" و"شيئاً نكرا"، لا يصحّ "التبجح بذكره، والتهنئة به" مقارنة بالجهاد المملوكي ضدّ التتار والفرنج.[٥٢]

لقد كانت هذه الألقاب تُشرّف هؤلاء السلاطين المجاهدين الفعليين وتعطيهم شرعيّة ترمّم فقدانهم لشرعيّة النسب، وكان تبنيها والتظاهر بها بابا من أبواب الدعاية بالنسبة لسلاطين اليمن الذين تأثروا كثيرا بالعادات السلجوقيّة الواردة عليهم عبر الشام ومصر، ومن ضمن هذه العادات حمل ألقاب قد لا يستطيعون تفعيلها، ومن ضمنها أيضا التمسّك بالسنّة وبالخلافة العباسيّة السنيّة.

- السلطان المتمسّك بالسنة وبالخلافة السنيّة

استفتح الخزرجي رثاءه للسلطان الأفضل عباس بقوله:

بكت الخلافـــة والمقـام الأعظـم *** والمـلك والديـــن الحنيف القيـــــم

فما علاقة الخلافة بهذا السلطان البعيد زمنيا عن خلافة بغداد المنتهية منذ غزو التتار، والبعيد سياسيا وجغرافيا عن خلافة القاهرة التي أقامها المماليك بعد سقوط بغداد؟

لابدّ من التذكير بأنّ علاقة الخلافة بالأسرة الرسوليّة علاقة قديمة بدأت بصفة فعليّة مع بداية السلطنة، وأشاعت المؤلفات الدعائيّة أنّها أقدم من ذلك حين جعلت اسم "رسول" جدّ الأسرة الحاكمة لقبا لرجل غسّاني الأصل اسمه محمد بن هارون، كان "جليل القدر فيهم فأدناه الخليفة العباسي وأنس به واختصه برسالتهِ إلى الشام والى مصر ورفع الحجاب فيما بينه وبينه فانطلق عليه اسم رسول وشهر بهِ وتُرك اسمه الحقيقي حتى جُهل... ".[٥٣]

---

[٣]- من ذلك الحديث عن السلطان المظفر الذي كان لهُ خمسمائة فارس في مصر تجاهد في سبيل الله ويحمل جوامكها من اليمن". الخزرجي، العقود، ج ١، ص ٢٣٥. كما كانت للسلطان الناصر أحمد مساهمات جهاديّة إلى جانب أبناء سعد الدين ضدّ حاكم الحبشة "الحطي الكافر"، محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ٣٦٨.

[٢]- القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧، ص ٣٤٤-٣٥٢.

[٣]- الخزرجي، العقود، ج ١، ص ٣٧.

هذه الرواية التاريخيّة تؤكد الصفة الدعائيّة للمؤلفات البلاطيّة وتؤكد حاجة الأسرة إلى نفي ماضيها التركماني مع الارتباط بالخلافة العباسيّة بأي شكل من الأشكال، ولئن جاءت هذه الرواية عن العلاقة "الافتراضيّة" متأخرة زمنيا، [٥٤] فإنّ العلاقة الفعليّة قد بدأت مع بداية السلطنة حينما احتاج سلاطين بني رسول إلى دعم "مؤسسة الخلافة" وهم الذين حكموا باسم المذهب السني الشافعي والعقيدة الأشعريّة، وما وجود أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة على نقودهم إلاّ تعبيرا عن هذا التوجه، فقد حملت نقودهم أسماء الخلفاء مصحوبة أحيانا بألقابهم الشهيرة وهي على التوالي "الصديق" و "الفاروق" و "ذو النورين" و "أبو السبطين"، مثلما حملت اسم الخليفة العباسي.

لقد حرص هؤلاء السلاطين على الارتباط بالخلافة العباسيّة وريثة الخلافة الراشدة وممثلة السنة والجماعة منذ أيام السلطان المؤسس الذي جاءته الخلعة من بغداد تزكيه "أمير تفويض" بعد أن كان في وضعيّة "أمير استيلاء" بحكم استقلاله الأيوبيّين وذلك على الرغم من زواجه من أرملة السلطان المسعود حاكم اليمن الأيوبي وإظهاره لوصيّة منه بحكم البلاد عند وفاته. [٥٥]

كانت الخلعة العباسيّة ضروريّة بالنسبة لأسرة من أصل تركماني لا تريد أن تكتفي بالنسب الغساني الذي انتحلته بعد أيام السلطان المؤسس خاصة وأنّها كانت في مواجهة ومنافسة سياسيّة وعسكريّة وعقائديّة مع أئمة الزيديّة الأشراف العلويين المتنفذين في شمال الهضبة اليمنيّة. [٥٦]

أمّا اسم الخليفة العباسي المستعصم فحملته نقودهم وذُكر على منابرهم منذ بداية خلافته إلى نهاية دولتهم، وهو ما أغناهم عن ذكر خليفة القاهرة الذي أقامه سلاطين المماليك وحكموا باسمه منذ سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م أي منذ أيام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري. [٥٧]

٢- نلاحظ أنّ المصادر المتقدّمة عن الخزرجي - باستثناء الأفضل- لا تذكر اسم محمد وإنّما اسم "رسول"، الأشرف عمر، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق سترستين، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، ص ٨٩؛ عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني، دار الحكمة اليمنيّة، صنعاء، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ١٣٩. أمّا الأفضل عباس فأعطاه اسم "الفتح" وجعل من رسول لقبا. الأفضل عبّاس، العطايا السنيّة، ص ٤٤١.

٣- ابن حاتم، السمط، ج ١، ص ١٩٥.

٥٦- محمد عبد الحميد سعيد، "هاجس التيمّن والشرافة في سلسلة نسب الأسرة الرسوليّة من خلال العقود اللؤلؤيّة للخزرجي"،أشغال الملتقى الدولي الثالث حول "النسب والشرف في العالم العربي الإسلامي والبلدان المتوسطيّة"، تونس ديسمبر ٢٠٠٤، تحرير: راضي دغفوس، المجلّة التونسيّة للعلوم الاجتماعيّة، تونس ٢٠٠٧، ص ١٤٠-١٦٣.

كان ذكر المستعصم طريقة ذكيّة للتخلّص من نفوذ المماليك ومن "خليفتهم" الذي سعى أكثر من مرّة إلى بسط "نفوذه" على اليمن دون جدوى.[٥٨] لقد رفض سلاطين بني رسول الاعتراف بالخلفاء المنصّبين في مصر بل أنّ صاحب اليمن كان يعتبر نفسه "الوارث بالحقّ خلافة بني العباس"، مثلما جاء في بصائر مدارسهم،[٥٩] وعبّر عنه السلطان الأشرف عمر في كتاب "تحفة الأصحاب".[٦٠]

ولعلّ هذا السبب هو الذي دفع بالمظفر يوسف وكذلك الشأن بالنسبة لبعض أبنائه إلى حمل لقب "الخليفة" وتغنى به شعراؤهم، [٦١] لكنهم حملوه حسب تقديرنا كلقب تعظيم وتفخيم ولم يحملوه كلقب حُكم مثلما هو الشأن مع لقب "أمير المؤمنين"، الوارد في نقيشة الدُملؤة.

على أنّ حمل لقب "الخليفة" ولقب "أمير المؤمنين" بصفة شرفيّة لم يغن بني رسول عن الدعاء لخليفة عباسي، فتشبثوا بالمستعصم. وقد ظلّت مسألة "الاستعصام" بهذا الخليفة تثير - على ما يبدو - جدلا بين الفقهاء بعد أكثر من قرن من سقوط الخلافة في بغداد، وهذا ما نفهمه من الفتوى التي أوردها الأهدل منسوبة للإمام الأصبحي[٦٢] والتي نصّت على "أن ملوك اليمن

٥٧- حمل سلاطين المماليك لقب "قسيم أمير المؤمنين". راجع، الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٩٦.

٢- تعكّرت العلاقة بين البلاطين سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، فقام الخليفة المستكفي بالله بمراسلة صاحب اليمن مهدّدا ومتوعّدا، ودعاه إلى عدم تعطيل اسمه في منابر اليمن، وهدّده "بمنع التصرّف في البلاد"، وإطلاق يد السلطان المملوكي لغزوه إذا "استمرّ في غيّه وبغيه". القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب، بيروت، د ت، ج ٢، ص ٢٥٦-٢٦٤.

٣- الوقفيّة الغسانيّة، بصيرة المدرسة الأشرفيّة، ص ١.

٤- الأشرف عمر، طرفة الأصحاب، ص ٨٨. قال المؤلف بعد ذكر مقتل المستعصم: "ولم يبق ممّن عهد إليه بالنيابة سوى السلطان الأعظم الملك المظفّر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول سلطان اليمن وهو سيّد ملوك بني رسول."

٥- ظهرت رتبة الخلافة في مدح الشاعر القاسم بن هتيمل للمظفر يوسف (ت ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥م) وكذلك في مدح الشاعر العفيف بن جعفر للمؤيد داود (ت ٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م)، كما ورد لقب "الخليفة المعظم" في رسالة جاءت الأشرف إسماعيل من الهند سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م. الخزرجي، العقود، ج ١، ص ١٤٥، ١٥٩، ٢٦٤، ج ٢، ص ٢٠٤.

٦٢- الأصبحي المذكور قد يكون "الإمام العالم الولي رضي الدين أبي بكر بن عمر بن منصور الأصبحي المشهور بالشنيني" (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤ م) وهو أشهر وأفقه من حمل نسبة "الأصبحي". البريهي، صلحاء اليمن، ص٤٧-٥٣.

متمسكون بعهد الإمام، المتقدم ذكره، وأنه عهد إليهم، وموتهم لا يؤثر في انعزال الباقين، فعقودهم صحيحة، وأحكامهم منتظمة على قانون الشريعة إن شاء الله تعالى". [٦٣]

كان التمسّك بالخلافة العباسيّة حاضرا في الشعائر ولكنّه كان حاضرا أيضا في المشاعر وانعكس في الكتابات وفي الممارسات، وما اسم السلطان الأفضل عبّاس نفسه إلاّ صدى لهذا التمسّك ببني العباس، وما تشبيهه لجدّه المؤيد داود في كتاب "العطايا السنيّة" بالخليفة العباسي هارون الرشيد، ولجدّه السلطان المظفر يوسف بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور إلاّ تعبيرا عن هذا الاعتصام بظلّ الخلافة وإعلاء لشأن أجداده في نفس الوقت.[٦٤]

لكنّ التمسّك بالخلفاء الراشدين الأربعة من خلال نقش ألقابهم على النقود وإعطاء أسمائهم لأبناء الأسرة [٦٥] والاعتصام بآخر الخلفاء العباسيين لم يكن كاف لتثبيت هذه الأسرة التركمانيّة الوافدة في وجه القبائل اليمنيّة المحليّة الفخورة بقحطانيتها أو في وجه أئمة الزيديّة الفخورين بالنسب العلوي الشريف الذي يمنحهم التفوّق في مجال الكاريزما وفي مجال الأهليّة السياسيّة، وهذا ما دفع بسلاطين بني رسول إلى انتحال نسب عريق يمنحهم الشرف وبالتالي شرعيّة حكم اليمن، فاختاروا الانتساب للغساسنة. [٦٦]

---

[٦٣]- الأهدل، تحفة الزمن، ج ٢، ص ٤٨٠.

[٣]- الأفضل عباس، العطايا السنيّة، ص ٣١٨، ص ١٤١.

[٤]- من بين الأسماء الأكثر شيوعا في البيت الرسولي: عمر، أبو بكر، علي، أمّا اسم عثمان فلم نعثر عليه إلاّ في مناسبة واحدة، مع العلم بأنّ استعمال هذا الاسم قليل جدّا في اليمن مقارنة بأسماء بقيّة الخلفاء الراشدين.

[٦٦]- كان النسب القرشي من شروط تعيين الأئمة عند فقهاء السنة والزيديّة معتمدين على أحاديث منسوبة للنبي (ﷺ). ومن ضمنها قوله: "حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ قَالَ ابْنُ عُمَرَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَزَالُ هَذَا الأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ". صحيح البخاري، "بَاب الأُمَرَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ"، الحديث عدد ٦٦٠٧.

- السلطان الغساني القحطاني وارث الأمجاد اليمنيّة

لئن اكتفى السلطان المؤسس نور الدين عمر بنقش "نسبة" "اليماني" على نقوده فإنّ أبناءه لم ينقشوا هذه النسبة التي نعتقد أنّها كانت جغرافيّة أكثر من كونها سلاليّة،[٦٧] ولكنهم اختاروا الانتساب للغسانيّة وافتخروا بذلك في مؤلفاتهم مثلما فعل الأفضل عباس في كتاب "العطايا السنيّة" حيث عرض الأصول اليمنيّة الغسانيّة للأسرة في أكثر من موضع.[٦٨] كما نجد هذا النسب حاضرا بقوّة في كتابات دعائيّة أخرى على غرار بصائر المدارس ومن ضمنها بصيرة المدرسة الأشرفيّة بتعز وبصيرة المدرسة الظاهريّة بنفس المدينة، حيث نقرأ في كلّ منهما وصف السلطان المؤسس للوقف بكونه صاحب "الأصل الشريف، والحسب العالي المُنيف، والأعراق الزكيّة".[٦٩]

على أنّ الشعر بقي أهمّ مجال تتجلى فيه الرغبة في الدعاية إلى النسب الغساني من طرف السلاطين الذين رسموا بأنفسهم منهج المدح به لشعراء البلاط فاستجاب هؤلاء إلى الرغبة السلطانيّة مثلما فعل المؤرخ الشاعر الخزرجي.[٧٠]

كان الخزرجي مثل عدد من أبناء عصره من الفقهاء "شاعرا فقيها"، وكان أيضا مثل عدد من مؤرخي عصره مؤرخا وشاعرا بلاطيا لذلك خصّص الباب الأول من كتاب "العقود اللؤلؤيّة في تاريخ الدولة الرسوليّة" للحديث عن النسب الرسولي للبيت الحاكم وعلاقته بالأسرة الغسانيّة الأزديّة القحطانيّة اليمنيّة، كما أنّه لم يبخل على أولياء نعمته بالتغني بهذا النسب في كتابه كلما

---

[٦٧]- اعتمادا على ما نعرفه من قصائد المدح التي أنشدها الشعراء في بلاط السلطان نور الدين والتي لم تتغنى بنسب يمني، نجزم بأنّ الانتساب إلى الغساسنة لم يظهر في عهده وإنما ظهر في عهد خليفته السلطان المظفر.

[٢]- الأفضل عباس، العطايا السنيّة، ص ٣١٨، ٤٨٠، ٦٩١.

[٣]- الوقفيّة الغسانيّة، بصيرة المدرسة الأشرفيّة ص ١. بصيرة المدرسة الظاهريّة، ص ٢٢. وقد نبهنا إلى أنّ بصيرة المدرسة الأفضليّة وصلتنا مبتورة لذلك لا نجد بها الجملة المذكورة. المدرسة الأولى من إنشاء ولده وخليفته الأشرف إسماعيل، والثانية من إنشاء حفيده الظّاهر يحيى (ت ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م).

[٧٠]- الأشرف عمر، طرفة الأصحاب، ص ٢٦، ٣٩ ، ٤٢. يقول المؤلف متحدثا عن الشعراء: "فعلمت أنّ لا خبرة لهم، فأردت أن أجعل هذا المختصر جامعا لملوك الآباء والأعمام ليعلم ذلك ويتسع طرق المدح".

سنحت له الفرصة سواء تعلّق الأمر بقصائد المدح أو قصائد الرثاء مثلما هو شأن القصيدة الواردة في هذا البحث. [٧١]

نجد الخزرجي في هذه القصيدة يلحّ على العلاقة بين السلطان الأفضل عباس وآبائه الملوك الغساسنة وكذلك ملوك اليمن المتقدمين، ثمّ آبائه الملوك من بني رسول. أمّا قصده من ذلك فهو إظهار العراقة في الملك والتأصل في اليمن بالنسبة للسلطان وأسرته.

يستعمل الخزرجي أسلوبا طريفا في الربط بين السلطان المتوفى الذي يُلقبه ب"التبعي الأعــظم"، وبين "آبائه" الأقربين بداية من جدّه مؤسس الدولة (الشهيد) وصولا إلى والده المجاهد، وكذلك آبائه و"عمومته" القدامى من ملوك الشام والحيرة وكندة وسائر ملوك اليمن من أبناء سبأ الأكبر، لقد أحضر هذا الحشد من الملوك في جنازة المتوفى بغاية إبراز نسبه الشريف وعراقته في السؤدد والحسب.

لقد كان ذكر الآباء الملوك عادة مدحيّة "متفشيّة" في الكتابات البلاطيّة وهي أشدّ ظهورا في الشعر البلاطي أكثر من سواه، فنحن نجدها لدى الشاعر المؤرخ إسماعيل بن المقرئ،[٧٢] مثلما وجدناها لدى المؤرخ الشاعر موفق الدين الخزرجي في هذه القصيدة. كما نجد التفاخر بالآباء في الكتابة التسجيليّة الواردة على طبق السلطان الأفضل والتي تدعوه "السلطان ابن السلطان ابن السلطان"، فهو هنا يفتخر بأنّه ابن سلطان وهو المجاهد علي وحفيد سلطان وهو المؤيد داود، وقد حكم ثلاثتهم بانتظام دون أن يفصلهم أخ أو ابن عمّ.

كان بإمكاننا أن نمرّ على هذه العبارة دون أن تجلب انتباهنا لولا تردّدها في شعر المديح بشكل ملحّ، فقد تغنى الشاعر ابن المقرئ بالسلطان المنصور عبد الله (ت ٨٣٠ هــ/ ١٤٢٧م) وبتعاقب الملك في أسرته وصولا إلى السلطان المؤسس فقال:

المالك المنصور وابن الناصــر *** ابن الأشرف ابن الأفضل الضرغام
وابن المجاهد والمؤيد والمظفّر *** والشــهيــد فـــرائــد بنظـــام [٧٣]

---

[٧١] - الخزرجي، العقود، ج ١، ص ١٧- ٤٩، الباب الأول " في ذكر انتساب الملوك بني رسول وكيف كان السبب في دخولهم اليمن واستقلالهم بالملك". يشير الخزرجي (ص ٢١) إلى قصيدة له في مدح غسّان سمّاها " المحصول في انتساب بني الرسول".

[٧٢] - إسماعيل بن المقرئ، ديوان ابن المقرئ، عني بطبعه ونشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي بالدوحة، ١٩٨٦، أنظر مدحه للسلطان المنصور عبد الله (ت ٨٣٠هـ/١٤٢٧م)، ص ٣٢٨-٣٢٩.

[١] - ابن المقرئ، الديوان، ص ٣٢٨-٣٢٩.

كانت صفة "العراقة في الملك" مصدر اعتزاز بل من أمجد الصفات التي تميّز سلاطين اليمن عن الأئمة المنافسين في اليمن وعن سلاطين المماليك في مصر، حيث لم ينجح أي منهم في تأسيس حكم سلالي.

كما أنّ انتحال النسب الغساني يعطي لمسألة التفاخر بالعراقة الملكيّة قيمة إضافيّة، فهذا النسب الملكي موغل في القدم وموغل في الحسب يكسب السلطان الرسولي "تراثا ملكيا" نادرا، وهذا ما عبّر عنه ابن المقرئ في مدحه للسلطان المنصور عبد الله أيضا حيث قال:

والملـــك ملكـــــكم تراث أبـــوة * أبقت عليــه لكــم يـــدا وتصــرفا**

مـــن عهـــد تبـــع والملوك سواكـــم *** هذا ابتـــدا ملكا وذا عـــــنه انتفى [٧٤]

لم يكتف ابن المقرئ في هذه الأبيات بذكر الآباء السلاطين الأقربين وصولا إلى نور الدين عمر (الشهيد) وهم من يسميهم عادة "ملوك الإسلام" بل يتعداهم إلى ذكر من يسميهم "ملوك الجاهليّة".

من هنا نفهم قيمة ما قام به الخزرجي نفسه حين استحضر بدوره وعلى عادة شعراء عصره في موكب جنازة الأفضل عباس ملوك يعرب وملوك غســـان ولخم وكندة، بل آباء هؤلاء الملوك كسبأ الأكبر وولديه حمير وارث "السيف والسوط والقلم" عن أبيه، [٧٥] وكهلان وارث "العنان والترس والقوس"، [٧٦] بل استحضر كلّ من له علاقة بالماضي اليمني المجيد من أبناء قحطان، غايته في ذلك إظهار عروبة أسرة بني رسول وعراقتها في الملك، فهم ورثة حمير وورثة غسّان "خالف عن سالف"، و"حمير أرباب العرب وغسان أرباب الملوك"، مثلما ذكر الخزرجي نفسه في أول فقرة من كتاب "العقود اللؤلؤيّة". [٧٧]

كان هذا اللجوء إلى الماضي اليمني البعيد عادة مدحيّة أخرى متفشيّة في البلاط الرسولي، بل أنها أقدم من عادة التغني بالآباء الرسوليين، فقد أقرّها السلطان الأشرف عمر في كتاب "طرفة الأصحاب"، [٧٨] وشاع استعمالها من طرف الشعراء الذين مدحوا أو رثوا سلاطين بني

٢- نفس المصدر، ص ٣١٨.

٧٥- الخزرجي، العقود، ج ١، ص ١٧.

٧٦- نفس المصدر.

٧٧- نفس المصدر.

٧٨- قال الأشرف عمر: "من نسب الملوك بني الرسول في شعر أو غيره إلى ملوك حمير أو إلى التبابعة والأقيال والأذواء أو إلى ملوك بني المنذر مثل عمرو بن هند والنعمان وغيرهم الذين هم من لخم فإنما ذلك على سبيل نسبة الرجل إلى بني عمّه...". الأشرف عمر، طرفة الأصحاب، ص ٢٦.

رسول مثلما فعل الخزرجي في هذه القصيدة، ومثلما فعل الشاعر إسماعيل بن المقرئ في أغلب قصائده المدحيّة.

لقد كان من بين أغراض قصيدة الخزرجي أن يتغنى بأمجاد السلطان الشخصيّة وأن يتغنى بنسبه "الغسّانيّ" الذي ظلت تلاحقه الشكوك رغم مرور أكثر من قرن على كتاب "طرفة الأصحاب" الذي رسم بوضوح معالم هذا النسب المجيد "الشريف"، ولا شكّ في أنّ حمل مؤلف الكتاب ذاته وحمل ثلاثة آخرين من سلاطين الأسرة للقب "الأشرف" يعكس وجود هاجس النسب لدى بني رسول[٧٩] الذين اهتزت هيبتهم كسلالة حاكمة بعد أن عبث بها "الطغاة" والبغاة" و"المفسدون"، وهذا ما حاول الأفضل عباس وجهازه الدعائي تلافيه بشتى الطرق ومن ضمنها ترسيخ جذورها في اليمن وفي السؤدد وفي الملك، وكذلك التلويح بصورة "السلطان القاهر" ومعها صورة السلطان المنعم.

- السلطان القاهر المهاب في الداخل والخارج

رأينا من خلال الحديث عن الصعوبات التي واجهها الأفضل طوال سنوات حكمه أنّ السلطنة كانت تفتقد للهيبة نتيجة الانتكاسات الكبيرة التي عرفتها في أيام والده المجاهد علي، لذلك سعى الأفضل إلى إعادة بناء هذه الهيبة بالقوّة العسكريّة القاهرة التي تجسّدت في قمع الخارجين على سلطته كلّما أمكن له ذلك، كما عمل جهاز الدعاية على إتمام هذه المهمّة بوسائله الخاصة.

ففي كتاب "نزهة الظرفاء" الذي أدرجنا محتواه ضمن الدعاية السلطانيّة نجد مؤلفه السلطان الأفضل عباس يقول بعد الحديث عن العدل والإحسان واللطف بالرعيّة: "وينبغي للملك مع هذه الصفات أن تكون له هيبة قاهرة وسياسة باهرة بحيث إذا سمعت به الرعيّة خافته ولو كانت بعيدة منه لاسيّما سلطان زماننا فإنّه يجب أن يكون له أوفى سياسة وأتمّ هابة لفساد أهل الزمان"، ويضيف: "والملك الذي لا هابة له ليس في أعين الناس له خطر فينبغي أن تكون هابته بحيث يقمع بها الفساد، ويحصل بها صلاح العباد".[٨٠]

فكأنّنا بالأفضل عباس يقول في هذا الكتاب لمن قد ينتقد سياسته العنيفة في قمع الخارجين عليه من أهل زمانه بأنّ ما يقوم به هو عين ما يقتضيه "فساد أهل الزمان"

---

[٢] **- انظر: محمد عبد الحميد سعيد، "هاجس التيمّن والشرافة".**

[١] - الأفضل عبّاس، نزهة الظّرفاء، ص ٤٢. وقريب من قول الأفضل هذا قول الغزالي " نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا، ونظام الدنيا لا يحصل إلا بإمام مطاع." أبو حامد محمد الغزالي الطوسي، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق موفّق فوزي الجبر، الحكمة للطباعة والنشر، دمشق- بيروت، ١٤١٥-١٩٩٤، ص ٢٠٠-٢٠١.

وتقتضيه هيبة السلطنة، وهذا ما يتجلى في قوله: "جور السلطان مائة سنة ولا جور بعــضهم على بعض سنة واحدة، وإذا جارت الرعيّة سلّط الله عليها سلطانا جائرا أو سلطانا قاهرا".[٨١]

لكنّ الهيبة لا تبنى بفرض الطاعة فقط، بل تبنى أيضا بفرض ناموس السلطنة وأُبهة الملك عبر مراسم بلاطيّة دعا السلطان الأفضل عباس رجال بلاطه إلى احترامها من خلال الباب الأول من كتاب "نزهة الظرفاء" وهو "في آداب خاصّة الملوك وجلسائهم وعلمائهم"، فقد دعا في هذا الباب إلى ضرورة محبّة السلاطين وطاعتهم وحرّم وجرّم الخروج عليهم لأنّهم "خلفاء الأنبياء" و"ظلّ الله في الأرض"، ولأنّ الله هو من اصطفاهم وأقعدهم في رتبة المملكة.[٨٢]

لهذا كلّه وجب على الداخلين على السلطان ما وجب عليهم تجاه الأنبياء من "التبجيل والتعظيم والتوقير والتكليم"، لأنّ "تعظيم الملوك من هذا القبيل".[٨٣] وقد بيّن الأفضل بعد ذلك آداب الدخول على الملوك ومجالستهم بالنسبة للوزراء والأمراء وأكابر الناس بل وأواسط الجند والرعايا والذين كان عليهم "تقبيل الأرض في السلام على الملوك"، واستثنى من هذا الواجب "الهاشميين والفقهاء والقضاة والزهاد والقراء"، وجعلهم يقتصرون على السلام وتقبيل اليد والركبة أو القدم.[٨٤] كما بيّن جملة من الآداب التي وجب احترامها ومن ضمنها أنّ "السلطان إذا عطس لا يشمت... وإذا دعا لا يؤمن على دعائه، ولا يعزى إليه من مات له من خاصته وحاشيته، لأن التعزية إنما تكون غالبا من الأكابر للأصاغر لا العكس...."[٨٥] ومن بين هذه الآداب التي حرص الأفضل عباس على التذكير بها في كتاب "نزهة الظرفاء" اختيار لفظ القول في خطاب السلطان وعدم إشراك غيره في التبجيل والإعظام بمجلسه، والاحتراز عمّا يتطيّر من الكلام، وترك الاحتراس وإظهار الموافقة، وعدم معارضته في القول وعدم تخطئته وغير ذلك من الآداب التي اختار لها نظائر من سير كبار خلفاء بني العباس.[٨٦]

هكذا سعى الأفضل عباس من خلال كتب "نزهة الظرفاء" أن يبرّر عنفه ضدّ فساد أهــل الزمان، كما سعى من خلاله أن يرسم منهج سلوك لحاشيته ليُعلي من شأنه ويضمن هيبتــه

---

[٢] - نفس المصدر، ص ٤٢.

[٣] - نفس المصدر، ص ١٧-١٨.

[٤] - نفس المصدر، ص ١٧-١٨.

[٥] - نفس المصدر، ص ٢٠-٢١.

[١] - نفس المصدر، ص ٢٠-٢١.

[٢] - نفس المصدر، ص ١٧-٣٥.

مستعينا بالقرآن والحديث النبوي وسير عظماء الملوك، كما أوكل للقبه المركب وهو "ضرغام الدين" أو "ضرغام الإسلام" برسالة مضمونها القوّة والبطش.[٨٧]

لقد لُقّب الأفضل في نقوده بضرغام الدين، ولقّبته نقيشة الـدُملوؤة بـضرغام الإسـلام، وأعطاه الخزرجي ألقابا عديدة هي: "الليث الهَصور لدى الوغى"، و"*الفُرافِصـةُ* الهَصـور القَسْـوَرُ *الـوَرْدُ* الهزَبْر الضَّيـغم"، وما تلك إلاّ بعض أسماء الأسد، وما الأسـد إلاّ رمـزُ القوة والهيبة والسيادة في حديث الشعراء وفي المخيال العربي عامة. [٨٨]

لكنّ الهيبة تقتضي في كلّ الحالات أن يستحقّها من يطالب بها، مثلما يستحقّ الأسد هيبته من قوّته ومن خوف الآخرين منه، لذلك حاول الأفضل أن يفرض هيبته بقوّة السلاح، وأظهره الخزرجي في قصيدة الرثاء رفيقا للأسلحة وصديقا، فتحدّث عن حـضور الـسيوف المهندة والقسي والسهام باكية مع من جاء يبكي السلطان المتوفى. وفي نفس القصيدة جعله السلاحَ نفسه، فقد استعار من السيف ثمانية أسماء وصفات وأطلقها بالجملة على الـسلطان فقال:

والصارم الذكـر الجـُـرازُ المَشْرَفـيّ *** القاطع العَضْب العضوض المخذم

لقد جعل الخزرجي من السلطان في نفس الوقت أسدا ثمّ حربا وأداة حرب وقهر لأعداء الإسلام، فهو "ملك له عنـت الملـوك"، وهو ملك يبكيه الحرم المكي ويبكيه الحجر الأسـود والركن اليماني. ومن قبل ذلك جعلته نقيشة إبريقه مشرفا على الحجاز من خلال لقب "خادم الحرمين" وجعلته نقيشة الدُملوؤة أكثر من مشرف إذ هو "سلطان الحرمين" ومعهمـا "الهنـد واليمن"، ومن هنا نفهم قول الخزرجي في رثائه:

ملك له عنـت الملـوك وأذعـنت *** قهـراً ودان الأغلـب المتعـظم

وأطاعه الدهـر العصي وأهلـه *** طوعاً وكـرهاً كافـر أو مسـلم

في واقع الأمر لم يكن سلطان اليمن هذا سلطانا لكلّ اليمن، فالأفضل عباس لم يـسيطر على ما سيطر عليه آباؤه من قبل، فقد ضعف نفوذه في الأطراف الجنوبيّـة لـصالح القـوى المحليّة، وانعدم في الشمال نتيجة للمنافسة التي فرضها أئمة الزيديّة منذ عصر والده المجاهد، بل أنّ الأمر قد تفاقم في عهده بعد أن هاجم الإمام الناصر محمد مدينة الجند وزبيد أي اليمن الأسفل كما رأينا، ومع ذلك تصرّ الدعاية الرسوليّة على تلقيب الأفضل ب"سلطان اليمن" لترميم هيبة مفقودة، ولنفس الغاية لُقّب الأفضل ب"سلطان الهند"، و"سلطان الحرمين" فـي "نقيـشة

---

[٣] - يلقّب الأفضل حينا بضرغام الدين وحينا آخر بضرغام الإسلام، مثلما هو شأن المجاهد الذي يلقّب بسيف الإسلام في نقوده أنظر الدبعي، "المسكوكات"، وبسيف الدين في الكتابات التسجيليّة الواردة على أوانيه، انظر: Berchem, "Notes d'archéologie arabe", pp. 60-65.

[٤] - إلى جانب الأفضل، لقّب كل من المؤيد والظاهر بلقبين مأخوذين من أسماء الأسد: المؤيّد هزبر الدّين داود (ت ٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م)، والظّاهر يحيى هزبر الدنيا والدين (ت ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م).

الدملؤة"، لكنّ حديث الهيبة لا يحجب عنّا وجود علاقة فعليّة بين هذا السلطان وتلك الأصـــقاع البعيدة، فما هي طبيعة تلك العلاقة؟

فأمّا بالنسبة للقب "سلطان الهند" فيمكن تفسيره بوجود جاليات يمنيّة في مـــدن الـــسواحل الهنديّة كانت تتعاطى التجارة مع بلاد اليمن التي شاركت بكثافة في نشاط التجـــارة الـــشرقيّة الكبرى والتي كانت تمرّ مراكبها بسواحل اليمن عبر مدينة عدن.(٨٩)

نحن نعلم أنّ سلاطين بني رسول عملوا منذ بداية دولتهم على حماية مـــصالح تجّـــارهم وتجارتهم في البلدان التي تعامل معها اليمن مباشرة، كما ساهموا أو قـــاموا ببنـــاء مـــدارس ومساجد خارج اليمن يقع بعضها في الحجاز وبعضها الآخر في مناطق تواجد الجاليات اليمنيّة في الهند والصين كتعبير عن وجودهم في هذه الأصقاع، فقد كانت إنعامات السلطان المظفـــر يوسف من الخلع والجبائب والعمائم، و كميات من محصول الفوّة والذهب الخام تـــصل أئمـــة وقضاة بعض المدن الساحليّة بالهند مثلما تشهد به وثائق أرشيفه.(٩٠)

كما أخبرنا الخزرجي في أحداث سنة ٧٩٥هـــ/١٣٩٣م عن كتاب تلقّاه الأشرف إسماعيل من مدينة كالقوط باسم قاضيها وباسم التجّار المقيمين بها يبذلون طاعتهم للسلطان ويستأذنونه في إقامة الخطبة له، وقد خاطبوه باسم "مولانا السلطان الأعظم، الخليفة المعظم، محرر ممالك

١- حول الدور اليمني في التجارة الشرقيّة الكبرى أنظر على سبيل الذكر: محمد عبد الحميد سعيد، "دور اليمن في التجارة الشرقيّة الكبرى من سنة 1422/825 إلى سنة 923 /1517"، نشر ضمن تحيّة تقدير متوسطيّة لأندري ريمون، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، أوت ٢٠٠٧. "مشكلة المياه في مدينة عدن في فترة نشاط التجارة الشرقيّة الكبرى عبر اليمن"، الكراسات التونسية، عدد ٢٠١-٢٠٢، تونس ٢٠٠٧.

Éric Vallet, L'Arabie marchande etat et commerce sous les sultans rasūlides du Yémen (626-858/1229-1454), publications de la Sorbonne, Paris, 2010.

١- يُنسب للسلطان المظفر يوسف جامع في جزيرة هرمز وآخر في الصين. الخزرجي، العقود، ج ٢، ص. بالنسبة لهدايا المظفر أنظر: محمّد عبد الرحيم جازم (تحقيق)، نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفّري الوارف، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، ٢٠٠٣، ج ١، ص ٥١٦-٥١٨. أنظر أيضا:

Éric Vallet, "Les communautés musulmanes de la côte indienne face au Yémen (XIII^{e} siècle - XVI^{e} siècle) ", *Hypothèses* 1/2004, pp. 147-156.

العرب والعجم، سيد سلاطين الشام واليمن"، وذكّروه بأنّ سلاطين السجالة والهرمز والسمطرة التمسوا من القائمين على هذه المنابر شرف ذكر أسمائهم وصرفوا لهم في سبيل ذلك "من الأموال ما لا حصر فيه ولا عدد". (٩١)

هذا يعني أنّ وجود اسم الهند ضمن ألقاب الأفضل لا يمكن إلا أن يدلّ على ذكره في منبر أو أكثر من منابرها، مثلما كان الأمر في عهد جدّه المظفّر أو مثلما هو شأن كالقوط بالنسبة لولده الأشرف من بعده، دون أن ننسى أنّ اسم الهند كان يحيل على العظمة في الذهنيّة اليمنيّة والإسلاميّة عامة نظرا لعظمة هذه البلاد وارتباط ذكرها بالثراء والتجارة ومصالح تجّار اليمن.

وأمّا لقب "سلطان الحرمين" الوارد في نقيشة حصن الدُلمؤة، فهو مطمح كل سلطان باعتبار القيمة الرمزيّة للحرمين في الذهنيّة الإسلاميّة، وهو بالنسبة لليمن يحيل على علاقة مليئة بالمغامرات مع مكّة ومن ورائها مصر في نفس الوقت. لقد كان مؤسس الدولة الرسوليّة أميرا على هذه المدينة في العهد الأيوبي، ثمّ سيطر عليها عندما تسلطن في اليمن مستغلا ضعف الأيوبيين في مصر بعد عدّة حملات عسكريّة واجه فيها نوّابهم في الحجاز.(٩٢) أمّا ابنه المظفر فاستغلّ غياب حاج العراق عن مكّة منذ سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م بسبب ضغط التتار ثمّ دخولهم بغداد في السنة الموالية، فقام بمصالح الحرم وأهله وكسا الكعبة من الداخل والخارج بمناسبة أدائه لفريضة الحج سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م. (٩٣)

كان الإشراف على الحرمين شأنا مصريا منذ العهد المملوكي، بل أنّ ذكر الحرم المكي أصبح يرتبط بذكرى أسر المجاهد "المتهم" بمحاولة كسب شرف كسوة الكعبة، ولكنّ ذلك لم يمنع الأفضل عباس من تلقيب نفسه بـ "سلطان الحرمين" مثلما هو الشأن في نقيشة حصن الدُلمؤة أو بلقب "خادم الحرمين" حسب ما يبدو من نقش على الإبريق الذي صنع باسمه، (٩٤)

---

[٢]- الخزرجي، العقود، ج ٢، ص ٢٠٤. هرمز جزيرة تجارية في الخليج العربي. سمطرة أو سومطرة هي جزيرة جاوة من جزر أندنيسيا. أمّا السجالة فلعلّها بنجالة في شرق الهند.

[٩٢]- الفاسي، العقد الثّمين، ج ٦، ص ٣٣٩-٣٤٩؛ تقي الدين أحمد المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م، ص ١٠٩-١١٠. ا ؛ ابن حاتم، السّمط الغالي، ج ١، ص ٢٠٤ و ما بعدها.

[٢]- المقريزي، الذهب المسبوك، ص ١١٤-١١٥.

[٣]- خليفة، الفنون الزخرفية، ص ٣٨. هذا اللقب معروف في مصر منذ العهد الأيوبي حيث لقّب به ابن شدّاد السلطان صلاح الدين الأيوبي،بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، تحقيق جمال الدين

كما أنّ ذلك لم يمنعه من تشييد مدرسة في مكّة ليكون بذلك ثالث سلطان رسولي ينـــال هـــذا الشرف بعد والده وبعد مؤسس دولة بني رسول الذي كان يسيطر على المدينة المقدسة ويعيّن نوابه فيها بعد أن أزاح منها النفوذ الأيوبي. [٩٥]

على أنّ النفوذ اليمني لم يكن منعدما في مكّة في العهد المملوكي حيث كان اسم سلطان بني رسول يذكر على المنبر المكي بعد اسم سلطان مصر المملوكيّة من يوم أن حجّ المظفّر إليها وقام بمصالح الرحم وأهله "وأكثر من الصدقات ونثر على الكعبة الذهب والفضّة، وخطب له بمكّة واستمرّ يخطب بعده لملوك اليمن على منبر مكة" شهادة المقريزي (ت ٨٤٥ هـــ /١٤٤٢م) في "الذهب المسبوك"، [٩٦] وهي شهادة شهد به من قبله ابن بطوطة حينما حضر موسم الحج وسمع ذكر اسم المجاهد علي على المنبر المكي. [٩٧] ولا شكّ في أنّ تعويل أهل مكّة وأشرافها على الميرة اليمنيّة كان من بين دواعي تواصل هذه العادة التي تشرّف سلاطين اليمن وتزيدهم هيبة في نظر رعاياهم. [٩٨]

الشيال، القاهرة ١٩٩٤، ص٢٥-٢٦. ورد لقب خادم الحرمين مرتبطا باسم السلطان الظاهر بيبرس أيضا. الباشا، الألقاب الإسلاميّة، ص ٢٦٧-٢٧٠.

٤- مثلما ذكر ريتشارد مورتيل، كان بناء المدارس بالنسبة للرسوليين تعبيرا عن نفوذهم في هذه المدينة أو عن رغبتهم في التنفّذ فيها:

« In the case of those *madrasas* established by Muslim rulers, particularly the Rasulids of the Yemen, it appears likely that the foundation of a college of Islamic law adjacent to the Haram was seen as a testimony to their political influence in the amirate of Mecca, or to their aspirations to such influence». p. 236. Richard T. Mortel, "*Madrasas* in Mecca during the Medieval Period: A Descriptive Study Based on Literary Sources", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, University of London, Vol. 60, No. 2, 1997, pp. 236-252.

١ - المقريزي، الذهب المسبوك، ص ١١٤-١١٥.

٢- أبو عبد الله محمد اللواتي (ابن بطوطة)، رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت ، ١٤١٢هـــ/ ١٩٩٢م، ص ١٦١.

٣- كان سلاطين اليمن يعمدون إلى قطع الميرة عن الحجاز كلما ساءت علاقتهم مع بني قتادة أصحاب مكة.

لقد كانت هناك علاقة فعليّة بين السلطان اليمني والأقطار المذكورة في ألقابه، ولكنّ هذه الألقاب كانت موجّهة أساسا "للاستهلاك" الداخلي، [٩٩] ذلك أنّ السلطان الذي فقد هيبته وسيطرته على جزء كبير من اليمن يتشبّث بألقاب تشريفيّة كانت في عهد آبائه تعني أكثر من معانيها في عهده. أمّا هو فيسعى من خلال مواصلة حملها إلى الظهور بمظهر صاحب سلطة وهيبة في مناطق شاسعة من العالم، فهو "سلطان الحرمين"، وهو "سلطان الهند"، وهو في الواقع يدفع الأموال ويعطي العطايا من أجل أن تذكر ألقابه على منابر هذه البلدان "ليحصل التفاخر والتسامي" حسب عبارة الخزرجي في حديثه عن مراسلة قاضي كالقوط وتجارها.

ولئن كان إعطاء الأموال في الخارج من أجل التفاخر والتسامي أو من أجل الدفاع عن مصالح تجاريّة أو ترميم هيبة داخليّة فإنّ الإحسان والعطاء كان في داخل البلاد الوجه الآخر للسياسة السلطانيّة التي يسميها الأفضل عباس سياسة "العطاء والقنا". [١٠٠]

كانت سياسة "العطاء والقنا" تعتمد المال والسلاح وتوحي بخصال السلطان القوي المنعم في نفس الوقت وهي الخصال التي حاول الأفضل عباس أن يزيّن بها صورته مثلما زيّنها بالعلم والجهاد والعدل، فكيف أضاف إلى ذلك فضائل الإنعام والعطاء. [١٠١]

- **السلطان المنعم**:

حمل عبّاس لقبا مُركّبا هو "ضرغام الدين" كعنوان للقوّة والهيبة، ولكنّه حمل أيضا لقبا مفردا هو لقب "الأفضل" الذي كان الأكثر استعمالا وبالتالي شيوعا وشهرة. [١٠٢] انتشر هذا اللقب مرتبطا في الأوساط الدينيّة بالإحسان السلطاني العلمي من خلال اسم "المدرسة الأفضليّة" التي أنشأها لطلبة العلم في مدينة تعز في السنة الثانية من حكمه، ومن خلال اسم "المدرسة الأفضليّة" التي أنشأها في مكّة أيضا. وانتشر نفس اللقب في كلّ الأوساط اليمنيّة مرتبطا بالذراع الأفضلي بعد أن "تصدّق" "على كافة الرعايا في سائر جهات المملكة اليمنية بأن يمسح

---

[٤]- يمكن استعمال هذه الألقاب لغاية الاستعمال الخارجي أيضا فقد استعمل السلطان المملوكي لقب "سلطان اليمن والحجاز" في بعض معاهداته مع المدن والدول الأروبيّة. الباشا، الألقاب الإسلاميّة، ص ٢٧٠.

[١]- الأفضل عباس، العطايا السنيّة، ص ٣١٨. سوف نفسّر هذه العبارة في سياقها.

[٢]- تعتبر أشكال الهبات دعامة من دعائم الحكم إلى جانب القوّة القاهرة والقوانين أو الأعراف السائدة. أنظر:
Benabdelali Naïma, *Le Don et l'anti-économique dans la société arabo-musulmane*, Editions Eddif, Casablanca, 1999, p. 54.

[٣]- تنطبق هذه الملاحظة على كلّ سلاطين بني رسول، حيث اشتهروا بألقابهم المفردة مثل "المجاهد" و"المنصور" أكثر من أسمائهم مثل علي أو عمر أو ألقابهم المركبة مثل "شمس الدين" و "نور الدين".

عليهم بالذراع المظفري فسمّاه الناس الأفضلي كونه الذي أجراه لهم صدقة تامة وعامة لا يختص بها أحد دون أحد". [١٠٣]

أُعتبر تغيير وحدة قيس المساحة الزراعيّة صدقة وبالتالي بابا من أبواب الفضل والإنعام والكرم، لأن هذه الذراع أطول من سابقتها وبالتالي ستكون مساحة الأراضي الممسوحة أقل من السابق وينتج عن ذلك تعديل في حجم الأموال الموظفة على الأراضي الزراعيّة.

كما أُعتبر بناء المدارس وملحقاتها من مساجد وكتاتيب وترتيب الفقهاء والحفاظ والمقرئين المدرسين فيها وكذلك الأئمة إنعاما عليهم وبابا من أبواب الفضل والكرم والصدقة التي يشترط فيها المال الطيّب الحلال، ومن نفس القبيل كان يُنظر إلى ترتيب الأيتام في كتاتيب المدارس وترتيب الطلبة في هذه المدارس.[١٠٤]

ومن باب الإنعام والفضل والصدقة كان ينظر أيضا إلى جوائز المؤلفين والشعراء ومسامحات الفقهاء والمناصب، وكذلك كساوي التجّار المترددين على السلطنة والأمراء الداخلين في خدمتها وأعيان قبائلها وأشرافها.[١٠٥]

كانت هذه الإنعامات من المآثر التي يحرص المؤرخون على ذكرها في تراجم السلاطين، ويحرص الشعراء على التغني بها في حضرتهم، ويحرص السلاطين على شيوع أخبارها من خلال مضاعفة الجوائز وتقديمها في إطار احتفالي حاشد في المناسبات العامة والخاصة، ومن ضمنها المناسبات الأليمة كتلك التي أنشد خلالها الخزرجي قصيدته في رثاء السلطان الأفضل عباس بحضور ولده وخليفته الأشرف إسماعيل.[١٠٦]

---

[١٠٣]- نفس المصدر، ج ٢، ص ١٢١. ويضيف الخزرجي: "وأجرى لبعضهم مزال خمس فيما تدور عليه الحبل ولبعضهم مزال الربع صدقة مؤبدة يتصل بها القوى والضعيف".

[١٠٤]- وردت عبارات الصدقة في بصيرة المدرسة الأفضليّة بتعز ستّ مرات بصيغ مختلفة (فعل، اسم، اسم فاعل) ومن ذلك "وقّف وحبّس وسبّل وأبّد وحرّم وتصدّق مولانا السلطان...". كما اعتبرت البصيرة عملية الوقف إنعاما حيث نقرأ فيها ما يلي: " ويعقبون القراءة وإسماع الحديث الدعاء للمنعم المتصدّق أيده الله بتوفيقه". أمّا عبارة "الطلبة المرتبين" فتعني الذين يتلقون راتبا من موارد الوقف، أما غير المرتبين وهم الذين يدرسون دون أن تكون لهم رواتب، فتسميهم البصائر "المتطوعون".

[١٠٥]- المسامحات هي تخفيضات جزئيّة أو كليّة تمنح للمزارعين أو للعلماء أو القائمين على أضرحة الأولياء وهم المناصب.

[٣]- من الضروري تفعيل التأثيرات النفسيّة للهبات السلطانيّة بتقديمها في إطار احتفالي يزيد من مفعولها. انظر: Benabdelali**,** *Le Don et l'anti-économique***,** p. 84.

ففي هذه القصيدة التي ستكون مناسبة لجائزة من السلطان الجديد، نال الوريث نصيبه من المدح بالنسب الزكي وبالحزم والعزم وبالجود اليعربي بعد أن نال المتوفى ما نال من أوصاف الكرم والسخاء باستعمال مصطلحات وأوصاف وتشبيهات عديدة مثلما يوضحه الجدول التالي:

الصفـــــــة	تفسير المعنى
العارض	السحاب الذي يَعْتَرِضُ في أُفُق السماء.
الأَجَشّ	السحاب الشديدُ الصوتِ.
المُرْجَحِنّ	المُرْجَحِنُّ السحاب المائل لثقله.
الهتن	هَتَنَتِ السماء صبّت ومطر هَتُون هَطُولٌ وسحاب هَتُون والجمع هُتُن.
الهَتُون (الغيث)	المطر الهَتُون.
الغيث	المطر.
الوابل	المطر الشديد الضَّخْم القطْرِ.
الغَدَق	الغَدَق المطر الكثير العامّ.
الملث (الغيث/السحاب)	الملث من السحاب أو الغيث هو الدائم المقيم.
المُتْجِمُ	الإِتْجامُ سُرْعة المطَر وأَتْجَمت السماءُ دام مطرُها.
البحر	البَحْرُ: الماءُ الكثيرُ مِلْحاً كان أَو عذبا/ الرجل: واسع المعروف.
الخِضَمُ	البحر: لكثرة مائه وخيره /السيد: الجَوادُ المِعْطاءُ ذو المعروفِ.
الخِضْرِمُ	البحر: الكثير الماء/ السيّد: الجَواد الكثير العطية.
القمر المنير	القمر المشرق.
الفضل	الخير والمعروف والعَفْوُ والإِحسان.
الجود	الجُود: الكرم السخاء الجَوْد: من المطر الذي لا مطر فوقه البتة.
العطاء	العَطاء نَوْلٌ للرجُلِ السَّمْحِ والعَطاءُ والعَطِيَّة اسمٌ لما يُعْطَى والجمع.
الأَنْعُمُ	النِّعْمَةُ اليد البيضاء والصَّنيعة والمِنَّة، والجمع منهما نِعَمٌ وأَنْعُمٌ.

لقد شبّه الخزرجي السلطان المتوفى ب"البحر الخِضمُ الخِضْرِمُ"، أي الواسع الكثير الماء وهذا التشبيه السائد في شعر المديح العربي يرمز للكرم الكبير الذي لا تعرف حدوده، كما شبّهه ب"بالقمر المنير ضياؤه"، حيث استعار نور القمر الذي ينتشر في الأرض ليضيئها ليعبّر عن انتشار نِعَم السلطان. إلاّ أنّه أكثر من استعمال المفردات المأخوذة من المعجم المناخي على عادة غيره من شعراء المدح أيضا، فشبّه المتوفى بالسحاب وبالمطر باعتبار الأول مصدر للثاني والثاني مصدر للماء والماء مصدر الحياة، ثمّ أعطي لهذا السحاب ولهذا المطر أوصافا تفيد الكثرة والغزارة من حيث الغزارة والدوام، فهو -أي السلطان- العارض (السحاب الذي يظل السماء) الهتن (السحاب الممطر) الأَجَشُ (السحاب المرعد) المُرْجَحِنُّ (السحاب المائل لثقله)، وهو الوابل (المطر الشديد) الغدق (المطر الكثير العامّ) الملث (الدائم المقيم) المثجم (المطر الذي يدوم أياما)، وهو أيضا "الغيــث الهتــون المثجم".

ولا يكتفي الشاعر بهذه الاستعارات والتشبيهات بل يعتبر السلطان المتوفى مصدرا للفضل والجود والعطاء والإنعام، وأنّ كلّ ذلك قد انقطع بعد وفاته، حيث يقول:

هيهات ولّى الفضــل بعــدك كلــه *** والجـــود ولـــّى والعطا والأَنــعــم

على أنّه سرعان ما يعمل على تجنّب ما قد يلحق بالسلطان الوريث من حيف جراء تحسّره على ذهاب هذه القيم (الفضل، الجود) وذهاب منافع الناس المرتبطة بها (العطا، الأَنــعــم) فيستدرك متحدّثا عن كرم وريثه هذا "الجواد اليعربي"، "أخو الفضائل والفواضل" والذي "فــي كل كــف منه بحر خــضرم". (١٠٧)

لقد تغنى الخزرجي وغيره من شعراء السلطنة بكرم السلاطين وأطنبوا في وصف فضلهم أمّا السلاطين فاستجابوا بدورهم للأمر واستغلوا الشعر كوسيلة دعاية للاستزلام وتأليف القلوب من خلال بسط قدرتهم على الإنعام مثلما استغلوه لإشهار قدرتهم على الفتك وفرض الهيبة

---

١ - قمت بتتبّع المصطلحات التي استعملها الخزرجي لمدح كرم السلطان فوجدتها مستعملة من طرف المتنبي في نفس السياق باستثناء عبارة "الأجش"، وهذا ما يدلّ على شيوع العبارات والصور التي كانت تحلي الشعر البلاطي الرسولي.

والطاعة بقوّة السلاح وهو ما عبّر عنه السلطان الأفضل عباس ذاته في كتاب "العطايا السنيّة" عندما تحدّث عن سياسة "العطاء والقنا" عند حديثه عن سياسة جدّه المظفر يوسف في علاقاته مع أشراف اليمن، فقد ذكر انتصاراته عليهم وأعطياته لهم في نفس الوقت حيث، "عمّهم بالعطاء، حتى أنّه ليعطي النفر الواحد منهم ثماني مائة درهم، وأخذهم تارة بالعطاء وتارة بالقنا". (١٠٨)

كانت ثنائيّة "العطاء والقنا" أو "السيف والمال" حاضرة في أغلب مدائح السلاطين، فهي تعبير عن السؤدد وتعبير عن القدرة على كسب القلوب بالمروءة لمن هو أهل لها وقطع الرؤوس التي لا نفع للمروءة معها، وهذا ما عبّر عنه الشاعر ابن المقرئ في حضرة السلطان الناصر أحمد حفيد الأفضل عباس(ت ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤ م) حين قال:

له جندان مـن سيف ومـال * فـكـلهـما لحـاجـتـه معـد**

فذا مفن إذا ما قيل حـرب * وذا مغـن إذا ما قيل وفـد** (١٠٩)

لقد كان العطاء والإنعام والصدقة من قبل سلاطين بني رسول عنوانا من عناوين الكرم وكان هذا الأخير عنوانا من عناوين الزعامة والرئاسة ودليلا على الثراء ومظهرا من مظاهر بسط الهيبة وسبيلا إلى ذلك عن طريق الإستزلام وتأليف القلوب على طريقة الزعامات العربيّة القديمة، ولعلّ عادة تنظيم الموائد السلطانيّة والإنعام بالملابس والأغذية على العلماء والأشراف

٢- الأفضل عباس، العطايا السنيّة، ص ٣١٨. قال الخزرجي متحدثا عن عطاء المؤيد داود جدّ الأفضل عباس لحلفائه من الأشراف: "وحكى الشريف إدريس في كتابه قال: تذاكرنا عند والدي رحمه الله إنصاف السلطان له وما أعطاه.... فحسبناه جملاً لا تدقيقاً، فكان أكثر من سبعين ألف دينار ملكية خارجاً عن الكسوات والخيول والعروض والآلات. وما أشبهها بقول القائل:

تلك المكارم لا قعبان من لبن *** شيباً بماء فعادا بعد أبوالا."

انظر، الخزرجي، العقود، ج ١، ص ٢٦٦.

١- ابن المقرئ، الديوان، ص ٢٠٢.

والأمراء كانت في بعد من أبعادها صدى للإحساس بقيمة الانتماء إلى الماضي اليمني المجيد وتفعيلا لهذا الانتماء. [١١٠]

ففي تاريخ اليمن القديم الذي اعتزّ به سلاطين بني رسول وانتسبوا إليه من خلال انتحال النسب الغساني نجد أوّل ملوك الغساسنة في الشام واسمه "ثعلبة"، يُمنح لقب "جفنة" لأنه ورث جفنة أبيه التي يطعم فيها مائة شخص، أمّا والده عامر فيلقب ب"ماء السماء" لأنّه كان يقوم مقام الغيث بماله لكرمه، في حين لُــقّب والد هذا الأخير المسمى مازن ب"ماء السماء" وعرف أيضا ب"قاتل الجوع"، [١١١] كما استحق الحارث الرائش وهو من كبار ملوك التبابعة وموحّد اليمن وفاتح الشام والعراق حسب كتب الأخبار لقب "الرائش" لأنه راش الناس بما أوسعهم من العطاء.

[٢] - كانت العرب في جاهليتها تتغنى بأهل الكرم وتعطيهم ألقابا تشرّفهم على غرار "هاشم بن عبد مناف" جدّ بني هاشم، الذي نال هذا اللقب لهشمه الخبز بمكة لقومه، أمّا ابنه عبد المطلب فأعطته لقب "مطعم الطير"، و لقب "مطعم الناس في السهل، والوحوش والسباع في الجبل".

[١١١] - الخزرجي، العقود، ج ١، ص ١٧-٣٦.

الخاتمـــــة:

لا شكّ في أنّ سلاطين بني رسول الذين تبنوا نسبا غسانيا يمنيا موغلا في الشرف، كانوا على يقين من قيمة هذا النسب الملكي العريق وكذلك على يقين من القيمة الرمزيّة للارتباط برجل يدعى "قاتل الجوع" وبآخر يدعى "الرائش" وبثالث يدعى "جفنة" وبرابع يمُون قومه سنة وقد أخلفت السماء الموكولة بالماء، فيسمونه "ماء السماء". ولكنّهم - والأفضل ضرغام الدين عباس كان منهم بالاسم واللقب والفعل - حاولوا أيضا إعطاء صورة الحاكم الفاضل العالم المجاهد المهاب، حتى يضمنوا تسويق شرعيّتهم كسلاطين وكأسرة حاكمة خاصة وأنّ المسلمين في اليمن كانوا مثل بقيّة المسلمين يعيشون تحت صدمة ما حلّ بالخلافة في بغداد وينظرون إلى من يتولى أمورهم في كثير من الأحيان نظرة ريبة رغم اجتهادات مؤلفات السياسة الشرعيّة.[١١٢]

ولئن استعان سلاطين مصر على أمرهم بالجهد الجهادي ودعم الإسلام السني وباحتضان خلافة عباسيّة جديدة واستعانوا بالفقهاء لتبرير استبدادهم بالرعايا رغم أصولهم الأجنبيّة وذلك عن طريق فكرة الجبريّة السياسيّة و ضرورة طاعة السلطان ولو كان جائرا، فإنّ سلاطين اليمن الذين اعتمدوا نفس الأفكار السياسيّة دون أن يكونوا قادرين على الجهاد بحجم القدرة المملوكيّة وعلى تنصيب خليفة في بلادهم، قد عوضوا ذلك برسم ملامح تميّزهم عن سواهم من سلاطين الوقت، فتمسكوا بالخلافة العباسيّة على طريقتهم الخاصة من خلال الانتساب ل"رسول الخليفة" العباسي والاعتصام بالمستعصم العباسي كما انتحلوا جذورا يمنية عريقة في الملك والحسب بالانتماء للأسرة الغسانية، وانتسبوا للعلم رعاية وكذلك دراسة وتأليفا، خاصة أنهم

---

[١] - نظّرت هذه المؤلفات إلى فكرة ضرورة طاعة صاحب الشوكة ولو كان جائرا. أنظر عبد الله أحمد فروان، الخروج على الحاكم الجائر في الفكر السياسي الإسلامي، أوان للخدمات الإعلاميّة، صنعاء، د ت، ص ١٦٨-١٨٠.

وجدوا في الفكر الشافعي الذي يشترط العلم في الحاكم، ويرى العلم أفضل من النوافل بل أفضل من الجهاد خير سند لهم. [١١٣]

لم يخترع الجهاز الدعائي لبني رسول تلك الأفكار المقترحة في مؤلفات السياسة الشرعيّة أو تلك الألقاب الدعائيّة المستعملة في النقائش والنقود أو مختلف المفردات والجمل الشعريّة المستعملة في المديح والرثاء لغاية رسم صورة مثاليّة للسلطان، ولكنّه أحسن استعمال العبارات والأفكار المتوفرة في الرصيد الدعائي لعصره وطوّعها للخصوصيات اليمنيّة فجاءت صورة السلطان الرسولي على هذا النحو: "**سلطان عالم راع للعلماء والمؤسسات التعليميّة، عادل في أحكامه، مجاهد لأعدائه وأعداء المسلمين، منعم على رعيته، يقاسمها الأصل اليمني ويتميّز عن أشرافها وأعيانها بعراقة الملك، متمسّك بالسنّة والخلافة السنيّة، قادر على فرض هيبته في اليمن والحجاز والهند**".

كانت هذه صورة السلطان الرسولي دون تخصيص، وكان الأفضل عباس أكثر السلاطين حرصا على تلميعها ونشرها نظرا للظروف الحرجة التي مرّت بها السلطنة في عهد والده فهدّمت مجدها، ولعلّ مسعاه هذا هو ما جعله من أكثر سلاطين بني رسول إقبالا على وضع المؤلفات وخاصة منها ذات الطابع الدعائي من أجل أن يشاع عنه في حياته وبعد وفاته أنّه:

الأفضل بن علـــي الـــذي ساد العلـــى *** وبنـــى منار المجد وهـــو مهـــدم

---

[٢]- ينسب للإمام الشافعي قوله: "طلب العلم أفضل من صلاة النافلة"، وكذلك قوله: "ليس بعد الفرائض شيء أفضل من طلب العلم. قيل له: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله ". أبو بكر أحمد البيهقي، مناقب الشافعي، تحقيق أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ج ٢، ص ١٣٨-١٣٩.